

عمر فضل الله
رؤيا عائشة
رواية
فريق
متميزون
E-BOOK
دار النشر

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

رؤيا عائشة

(رواية)

عمر فضل الله

عن الرواية..

أخبرني الشيخ (محمد ود البصير) أنه ذات يوم بعد فتوح الخرطوم طلبه المهدي نصف النهار وقال له: «إن أمر المهدية كان طويلاً ولكن الإخوان غيروا وبدلوا». قال فقلت له: «بالله عليك كيف اتبعك هؤلاء وهم تعودوا ألا يتبعوا أحداً؟» فتبسم وقال لي: «يا أخي إنهم إلى الآن لم يتبعوني على ما أطلبه من إقامة الدين». قلت له: «لا تحزن يا مهدي الله فيد تبني ويد تهدم. أنت بنيت وهم هدموا. قلت لهم لا تقتلوا غُردون فقتلوه، وقلت لهم لا تمسوا الشيوخ في الخرطوم فنحروا أعناقهم، وقلت لهم لا تقربوا النساء فجمعوهن في الزريبة وقسموهن بينهم كما يقسم الجزار قطع اللحم. لا تحزن يا مهدي الله. أنت قدمت عذرك بين يدي الله، وهؤلاء قوم خلطوا نور الحق بمحض الزيف، ونحروا مسبحة الصوفي بحد السيف، وقتلوا مهديتنا في المهد وقبل مجيء الصيف، وقالوا قد زهق الترك وجاء الحق ولكن كيف!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



إهـــــداء

إلى أجدادي وآبائي الذين مضوا إلى الله بعد أن تركوا من خلفهم وطنًا يسع الجميع، وأجيالًا طموحة تسعى لإعماره.

وإلى أبناء جيلي الذين ورثوه من الآباء والأجداد فأفنوا الأعمار من أجل الحفاظ عليه.

وإلى أبنائي من الأجيال الحاضرة التي ترغب في العودة لماضيها معتبرة بأحداثه قبل أن تمضي قدمًا على بصيرة نحو تغيير واقعها وصناعة مستقبلها الذي ترجوه.

أهدي هذا الفيض..

عمر فضل الله

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



رؤيا المنتظر

السَّيْرُ برفقة أبي متعةٌ لا تماثِلُها إلَّا مُتعةُ اللعب مع الصحب والأقران، وقد اعتدنا السَّيْرَ معاً في أرجاء البُقْعَةِ أُمْ دُرْمَان. لكن ذلك اليوم الذي عبرنا فيه منطقة الأَسْكَلِي، قاصديْن محطة الترومواي في ستينيات القرن العشرين كان غيرَ بقية الأيام. فقد قطعنا المسافة إلى المحطة صامتيْن في أول الطريق، وكان يمسك بيدي ليس خوفاً عليَّ بل محبة، فقد كنت صبياً. وفي حين يستحيي من هم في مثل سني أو يتذمرون من تلك الفعلة لكونها تذكرهم بأنهم ما زالوا صغاراً يعتمدون على أبيهم ويحتاجون إلى حمايته، إلا أنها - على النقيض - جعلتني أحس بالرابط القوي بيني وبينه، وبالصداقة، والأمان والقوة المستمدة منه حين تكون يدي في يده. ولابد أن هذا الفعل العفوي قد ذَكَّرَهُ هو أيضاً بصباه كلما أمسك والده بيده وهما يسيران معاً في الطريق، فقد ابتسم فجأة بعدما أَمْسَكَ بيدي دون قصد، ثم قال دون أن يلتفت ناحيتي:

- هل أحدِّثُك بأعجب ما حدثني به جدك حين كنتُ في مثل عمرك هذا؟

كان ينظرُ أَمَامه وكأنه لا ينتظر مني جواباً. لكني بقيتُ أنظرُ إلى صفيحة وجهه أراقبه وهو ينظر إلى الأفق. وحين قلتُ نعم أحسستُ بيده تضغط على يدي برفق وكأنه ينقل عبرها كُلَّ ما يُكِنُّهُ لي في قلبه من حُبٍّ وعطف، ويبثني ما في ذاكرته من أحداث. وكنا قد وصلنا إذ ذاك مظلة الانتظار فبقينا صامتيْن. لكنه لم يبدأ حديثه إلا بعدما ركبنا الترومواي متوجهيْن صوب الخرطوم.

كان ينظر إلى البعيد وكأنه يستدعي ذكريات زمانٍ قديم بقي يتحاشاها طول عمره، وهو الآن يسمح لها بالاقتراب على حذرٍ وَتَوَجُّسٍ. يفعل ذلك من أجلي. ورُبما من أجل نفسه، فآباؤنا حين يتحدثون عن الماضي إنما يُخرِجُون مكنوناتٍ في صدورهم بقيت تؤرقهم، والحكي يخرجها ويزيح عن صدورهم بعضاً من ذلك الحَزن القديم. وربما يحكون لينقلوا رسالة لأبنائهم وأحفادهم، لئلا يخوضوا فيما خاض فيه آباؤهم. أو ربما هو حنين إلى الماضي الذي مضى ولن يعود إلا عبر ذكرياتهم وأحاديثهم التي يقصونها للأبناء والأحفاد، فهؤلاء الآباء يعودون دوماً إلى الماضي حيث لا مستقبل أمامهم، بينما يتطلع الأبناء للمستقبل فهم بلا ماضٍ يسترجعون ذكرياته.

أحسستُ حينها أن هذا الترام في انطلاقته نحو الخرطوم لا يسير بنا في المكان بل ينقلنا إلى الماضي عبر الزمان، وصوت أبي يأتي من هناك وكأنه روحٌ تحررت للتوِّ بعد أن ظلت رهينة الكتمان، فهو قد ورث من أبيه معرفةً غزيرةً وحكمةً مُستفيضةً استمر يقصها عليَّ حينما كبرت، فحفظت عنه الكثير.

قال لي:

- سمعتُ أبي في هذا المكان يقول إنه في مثل عمرك هذا كان يشهدُ مجالس والده القاضي في زمن المهدية، وكان بيته هنا في البُقْعَةِ أُمْ دُرْمَان. وفي أحيانٍ أخرى يحضر مجالس جاره إلياس باشا أُمْ بِرِيرْ، الذي بقي زمناً طويلاً يَعَجُّ بالثِّقَاتِ من أهل المعرفة ورواة التاريخ. وكانت مثلُ هذه المجالس في تلك الأيام بمثابة المنتدى والمتنفس لصفوةٍ من كبار السن، يجتمعون فيتبادلون الأخبار والحكايات، ويستمعون لأهل التاريخ والأنساب، ويتعارفون فيما بينهم، ويَجْتَرُّونَ ذكرياتهم وقصص

بطولاتهم ومغامراتهم، فيتداولون الحكايات والأحداث التي جرت في عهد الأتراك وأيام غردون، ثم مجيء المهدي، ويتذاكرون الموتى والشهداء فيترحمون عليهم. هذه المدينة شهدت الأحداث الجسام التي لا تصدقها العقول وكأنها ضربٌ من الخيال المستحيل المجنون. حدثني أن أباه كان يحرص على عقد هذه المجالس في بيته سراً، وكان التعايشي خليفة المهدي قد منع مثل هذه التجمعات وشدد في النَّكِيرِ عليها بإيقاع العقوبة بمن يضبط بجريمة حضورها أو الدعوة لها. ولذا فقد كان الرجال يأتون إليها خَلسة، وينصرفون عنها عند انفضاضها خفية. وفي أحيان أخرى كان جدك ينتقل إلى مجلس جاره فلا يتغيب عنه ولا ينقطع. ورغم أنها كانت مشهودة إلا أنها بقيت غير معلنة، فسطوة الخليفة التعايشي في أوجها، وبطشه في عنفوانه، والأحداث في زخمها تتواتر بغير انقطاع وذلك كل يوم.

في أحد تلك الأيام كان جدك في مجلس إلياس باشا فرأى امرأةً جاءت متخفية، وانزوت في ركن تَحُفُّهُ الظلال، حتى لا يُنتبه إلى قدومها وانصرافها. وبقيتْ في ذلك المجلس متلفعةً بثوبها، لم تُبْدِ من وجهها غير عينيها، وكان في رفقتها بعض صويحباتها، لكنهن كن سافرات فأدرك أنهن خادمات. ثم لاحظ بعد ذلك أنها لم تنقطع عن ذلك المجلس يوماً، فأثارت فضوله، إذ أن مثل هذه المجالس لا يشهدها إلا الرجال، أما النساء فلم يكن لهن حظٌ ولا نصيبٌ في مجالس التاريخ والأنساب، بَلْهَ مجالس العلم والدين. فعجب جَدُّكَ من جرأتها وإقدامها، فأمرها عجيب وحضورها مريب. ولما سأل عنها أخبره أحدهم هامساً أن هذه أم المؤمنين عائشة!

قال فضحكتُ حتى سالت الدموع من عيني، لأني كنت أعلم أن أم المؤمنين عائشة عاصرت عهد النبوة، وتوفيت بعد موقعة الجمل وذلك منذ أكثر من ألف وثلاثمائة عام. ظننت أنهم يتهكمون من سؤالي حين أجابوا بتلك الإجابة الغريبة غير المتوقعة، لكني رأيت الجِدَّ والصَّرَامة في وجوههم فعلمت أنهم لا يمزحون.

دفعني الفضول لأعرف حقيقة تلك المرأة فاقتربت منها، وكنت يافعاً لا يُمْنَعُ من هو في مثل سني من الجلوس بالقرب من النساء. وعندما لاحَظَت المرأة اقترابي وانتبهتْ لفضولي، أشارتْ لي بيدها أن اقتربْ أكثر ففعلتُ. ولما دنوتُ مالتْ ناحيتي هامسةً تسألني عن اسمي ثم اسم أبي، وحين أخبرتُها عَرَفَتهْ لكونه من أعلام أُمْ دُرْمَان.

سألتُها ببراءة:

- صحيحٌ أنك زوجة الرسول عليه السلام؟

نظرت إليَّ بعينين متسعتين تملؤهما الدهشة، وتخفيان وراءهما ابتسامة مكتومة ثم قالت:

- تقصد المنتظر عليه السلام؟

قلت:

- لا، لا. سمعتهم يقولون إنك أم المؤمنين عائشة!

حينئذٍ أسفَرَتْ عن وجهها، ويبدو أنها فعلت ذلك لأتعرف عليها، فرأيت تلك الابتسامة العريضة التي كَسَت مُحَيَّاها جمالاً، رغم الحزن الذي كحل عينيها ورسم هالة سوداء حولهما. قالت:

- نعم أنا عائشة أم المؤمنين! لكني كنت زوجة المُنْتظرْ وليس الرسول.

- كيف هذا؟ فأم المؤمنين عائشة هي زوجة الرسول!

ضَحِكَتْ بصوت خافتٍ مكتومٍ، لكنها أسرعت فغطت فمها بثوبها ثم قالت:

- ليتني ياولدي كنتُ خادمةً عند أمنا السيدة عائشة، أو عند سيد الوجود عليه الصلاة والسلام. ياولدي أنا أمك عائشة زوجة المنتظر عليه السلام، فالناس يلقبوننا أمهات المؤمنين. المنتظر له عائشتان أنا إحداهما، فأنا الزوجة الكبرى. وله غيرنا أيضاً ثلاث فواطم. نحن نساؤه الشرعيات. ولذا فنحن ممنوعات من الزواج بعده، لكوننا بمثابة الأمهات، وحركتنا محدودة بل وممنوعات من الخروج، فذلك أحد المحظورات في حقنا، لكني أزور هذا المجلس سراً، ولو حدث المحذور فرأوني معكم هنا لوقع شَرٌ مُستطِير.

- وهل له نساءٌ غيرُ شرعيات؟

- لا يمكنك أن تقول هذا! فهن في العرف مثل الشرعيات.

همست في أذني وعيناها تبرقان:

- اسمهن سُرِّيَّات وهن كثيرات!

- كم واحدة؟

- أووووه!

- بالله عليك كم واحدة؟

- مائة وأكثر. وتوفي وتحته أكثر من ستين أو سبعين منهن ياولدي!

- معقول؟ حرام!

كنت مندهشاً مما تقولُ وغيرَ مُصَدِّقٍ. لكنها حين لاحظت دهشتي قالت:

- المنتظر كان يحب الطِّيب والنساء والصلاة. تزوج كثيراً وتَسَرَّى كثيراً، ولم يَرُدَّ أي سرية أهديت إليه أو قسمت له عليه السلام.

- ومن الذي يقسم له هؤلاء السريات؟

- بعض وزرائه وقواده كانوا يهدونه أنصبتهم، وبعضهم يتنازلون له عن سرياتهم تقرباً إليه، والبعض غنمهن يوم دخل الخرطوم، والبعض الآخر كُنَّ هدايا من عبد الله.

- من عبد الله؟

- التعايشي يا ابني! خليفته اليوم. ألا تعرفه؟

- التعايشي؟

صرختَ بصوت عالٍ، وكنت فزعا وببراءةٍ فعلت ذلك. فقد سمعت عنه أهوالا.

- هُسْ. لا تنطق باسمه هكذا مجرداً وأخفض صوتك.

قلت هامساً:

- نعم نعم أعرفه. لن أقول اسمه مجرداً مرة أخرى ولن أرفع صوتي. ولكن حدثيني عن المنتظر يا أمي. أريد أن أعرف كل شيء عنه.

- كل شيء؟

- نعم كل شيء!

هدأ روعها قليلاً وابتسمت ثم قالت بصوت منخفض:

- ليتني أقدر يا ولدي ليتني أقدر.

ثم همست في أذني:

- تعال عندي كل يوم وأنا سأحكي لك ما أعرفه عنه.

قال جدك:

- وكانت امرأة بعيدة النظر حكيمة. ربما رأت فيَّ علامات الذكاء والفطنة والفضول والاهتمام والحرص على المعرفة، فأنا ابن أحد قضاة المهدي ومازلت يافعاً. وأنا وافد على هذه المدينة فقد انتقلت إليها من البادية، ولم أكن أسمع عن المهدية إلا القليل، فقد كانت أخبارها شحيحةً بالنظر لمن هو مثلي من الذين نشأوا في البادية يقضون يومهم يسرحون خلف البهم والغنم. فبدا لها أن تنقل إليَّ سيرة زوجها الإمام، وتخبرني بكل شيء عنه لأنقله لمن بعدي حين أكبر.

مازلت أذكر ذلك الحوار جيداً. رغم أنه حدث منذ زمنٍ طويل لكني حفظته بكل تفاصيله، فقد كان مدهشاً ومثيراً. وكنت صغير السن حاضر الذهن، لا تفوتني شاردة ولا واردة. بقيتُ أغشى ذلك المجلس في حياة أبي وبعد انتقاله. دخلتُ البُقْعَةَ مع أبي ولم يكن بها مبنى في ذلك الحي حيث نقيم غير غرفة كان فيها المنتظر، ثم بُنِيَتْ الغرفات والدور والمساكن بعد ذلك، وجاء أهل البوادي والقرى فعمروا أُمْ دُرْمَان من بعد خراب. وكان والدي من الذين يؤلفون في التاريخ والأنساب، فيجتمع إليه الأعيان والذوات. واشتهر ذلك المجلس بعدما شهده كثير من الثقات، فسمعتُ وفَهِمتُ الكثير. لكن أعظم ما عقلتُهُ هو التاريخ غير المحكي من سيرة المنتظر وأخباره. سمعت معظمه من عائشة أم المؤمنين التي لازمته أيام رقدته الأخيرة. وحين حكت لي وجدتُهَا عليمةً بأحواله الخاصة. حدثتني عنه فقالت إنها رافقته وهو على فراش الموت وبقيتْ معه حتى زفر آخر أنفاسه. وقالت كان يتحدث أثناء احتضاره وكأنه ينعى نفسه، مستعرضاً سيرة حياته في تلك الرقدة التي لم يفق منها. وكانت هي امرأة حافظة عليمة فلم يفتها شيء من كلامه. وحين سألتها عن أحواله لم تجب عن سؤالي في ذلك المكان، بل أمسكتني من يدي وقامت تمشي خارج المجلس.

ولما رآني أبي خارجا معها، نظرتَ في عينيه فقرأتَ أنه غير معترض على هذا الصنيع، بل كان ممتناً فاعتبرتُهُ إذناً لي وموافقة، فتبعتُها ومضيتُ معها. أَخْبَرَنِي بعد ذلك أنه تمنى لو كان يستطيع تبادل الأدوار معي ليذهب هو معها بدلاً عني ليسمع قصتها إن كان ذلك الفعل يصح عُرفاً أو شَرعاً. وكان مستعداً أن يدفع عمره كله مقابل المعرفة. لكنه لم يفعل لأنه كان يظن أني حين أعود من عندها فسوف أحكي له كل شيء. كان شديد الحرص على التعلم ويعرف مقدار ما تحمله تلك المرأة في ذاكرتها من كنوز الأسرار والمعارف، لكونها صحبت المنتظر في أيامه الأخيرة. لكن أبي حين سألني بلهفة يوم عدت في ذلك اليوم عن كل ما قالته لي فأجبته بأنها حدثتني عن أصحاب الإمام وبطولات المجاهدين الأنصار – ولم تكن تلك هي كل الحقيقة - زمَّ شفتيه غير مقتنع بإجابتي. وربما كان رد فعله ذاك نابعةً من خيبة أمله بالنظر لما كان يتوقعه من حكايات. وبالطبع لم أقل الحقيقة لأبي فقد وعدتُ أُمَّ المؤمنين عائشة ألا أُحَدِّثَ أحداً بما أسمعه منها -حتى لو كان أبي - إلا بعد موتها وموت التعايشي، وكذلك كان. إذ حَمَلْتُ هذا العبء في صدري مثلما حَمَلَتْهُ هي من قبلي، وهو سرٌ تنوء بحمله الجبال. لكنها وثقت بي فأخبرتني.

حين أمسكَتني من يدي في ذلك اليوم تبعتُها فمضت بي إلى حي العُمدة. ودلفنا إلى غرفةٍ صغيرةٍ علمتُ أنها غرفتُها، ولم يكن بها سوى عَنْقَريبٍ (سرير بلدي) واحدٍ عارٍ من الفراش واللِّحَاف، وبَنْبَرٍ (مقعد بلدي) غير مريح، أجلستني عليه وأمرت خادمتها فأحضرت ليَ قَرْعَةً إناء بلدي فيها بعضُ اللبن الحليب المخلوط بكسرة الذُّرَة فَقَدَّمَتْهُ لي، ثم صرَفَتْهَا وأغلقت الباب وجلستْ على ذلك العنقريب في مواجهتي، وبدأتْ تحكي لي وكأنها تزيح عن صدرها عبئاً كبيراً وحملاً ثقيلاً. وبين الحين والحين كانت تميل نحوي لتطعن ركبتي بأصبعها فتنبهني أن ذلك الحديث هام، ولتوقن أني متابعٌ ومنتبهٌ لما تقولُه. وكانت قوائمُ ذلك العنقريب تُصدرُ صَريراً عند كل حركةٍ تتحركها تلك السيدةُ، وتوشكُ أن تتداعى عند كل ميلةٍ تميلها نحوي. ولما شَعَرتْ بذلك سحبتني والبنبر معاً نحوها لتترك مسافةً كافيةً لحركة أصبعها دون أن تسمعَ صرير أرجل ذلك العنقريب المتهالك. فهمتُ من طريقتها في الحكي أنها تستودِعُني سِرَّ الأسرار فَنَحَّيْتُ قَرْعَةَ الحليب جانباً وَحَشَدْتُ كُلَّ حواسي لأستمع مُنصتاً فأستوعبَ ما تقوله.

قالت لي:

- عليك أن تنتبه جيداً لما سأحكيه وتحفظه ثم تنقله للناس حين تكبر وبعد أن أكونَ قد انتقلتُ فالموت حقٌ علينا جميعاً لأنك لو حدثت به الآن والتعايشي حيٌ ففيه قطع الرقاب. هل تعدني؟

قالت هذا ثم نظرت في عيني فرأت فيهما بريقاً، وفي وجهي حماسة وتطلعاً لما ستقوله. فعلمتُ الآن لماذا اختارت أن تحدثني بعيداً عن مجلس الياس باشا ولماذا اختارت أن نتحدث في غرفتها. قلت لها:

- أعدُكِ يا أمي!

شجعها ذلك لتواصل الحديث. قالت:

- المنتظر تزوج أولا ًمن قريباته الدنقلاويات، وأنا قريبته من جهة أبي، فأنا ابنة عمه وكبرى زوجاته. وقد نزح أبي إلى أَمْ دُرْمَان من جزيرة لَبَبْ واشترى الأرض التي نحن فيها اليوم. المنتظر

تزوج فاطمة أختي قبل أن يتزوجني ثم تزوجني في الأَبَيِّضِ بعد وفاتها في قدير. وما كنتَ هدية مثل البقية.

- هدية؟ كيف ذلك يا أمي؟

- الهدية عندنا عادةٌ جميلةٌ، فالأب يهدي ابنته زوجة لمن يرى أنه يستحقها، أو من يريد أن يُقَدِّرَهُ بها، فكثير من الناس أهدوا بناتهم للمنتظر عليه السلام تقديراً وعرفاناً ليقبلهن زوجات، أو يزوجهن أحد أبنائه، لكن لما كان أبناؤه صغاراً في ذلك الوقت تزوجهن هو وكن كثيرات! أما أنا فقد كنت تعويضاً له عن شقيقتي، وهو يعرفني منذ أن أقام في بيت أبي بعدما تزوج فاطمة أختي.

- لكنك قلت إنه تزوج كثيرات.

- لم يكن زواجه للمتعة، ولكن لتقريب القبائل والبيوت. المنتظر عليه السلام تزوج من جميع القبائل حتى من تلك البعيدة عنا، لكنه بقي دائماً يحتفظ بأربع زوجات شرعيات. فمن دِينْكَا بُورْ تزوج مَهْلَةَ الجُود أهداها والدها إليه حين كان في جبل قدير، وفي الوقت نفسه أهدوه قَبِيلَ الله النوباوية، ومأمونة الحبشية، وزينب بنت الأمير نورين التي سرى عليها اسم مقبولة بعد أن قال عندما أهدوه إياها: «الهدية مقبولة»!

سوف أحكي لك كلاماً لن يصدقه بشر لكنها الحقيقة. وأنا آليت على نفسي ألا أكتمه رغم أني أعلم أن الخليفة لو سمعه لقطع رقبتي على الفور وبلا تردد ودون محاكمة. هل عرفت الآن خطورة هذا الأمر؟

- نعم نعم. لن أتحدث. أقسم لك سوف أكتمه. ولن أتحدث به إلا بعد مو..!

ابتسمَتْ حين لاحظت أنني أوشكت أن أقول لها موتك!

- الموت حق علينا جميعاً يا ولدي فلا بأس أن تَذْكُرَهُ وَتُذَكِّرَنِي به. سأخبرك بأول كلام سمعتُه منه قبل أن يتزوجني، ثم أحدثك عن آخر عهدي به عليه السلام. أما أول كلام قاله لي – وكنت حينها من المحرمات عليه حرمةً مؤقتةً حين كان زوجاً لأختي فاطمة - هو أنه قصَّ عليَّ رؤيا رآها في النوم فكانت أشبه بالخيال والأساطير. فقد سَرَدَها بكلماتٍ غريبة، وأومأ فيها بعباراتٍ مُريبة، وكأنه يقرأ من كتب الأولين.

- ماذا قال لك يا أمي؟

- قال لي: تعلمين يا عائشة أني أعملُ عند خَشْم البَحَرْ (ضفة النيل) أقطع الأخشاب لصناعة المراكب وأَنْجُرُهَا بالقَدُّوم. وفي يوم حين كنتُ هناك، متَكئاً على صفحة المركب الذي أكملتُ صناعته بعد أن هَدَّنِي التَّعَبُ، وأعياني النَّصَبُ إذ أخذتني غفوةٌ فرأيتُ هاتفاً يخاطبُنِي بكلامٍ مليءٍ برموز الإشارات وغريب العبارات، وكأنه من حكمة الشيخ الأكبر محيي الدين أو رموز الشيخ أبي الحسين الحلاج.

وحين قلت له:

- ماذا قال لك؟

شحب لونه وجحظت عيناه وكأنه ينظر إلى ذلك الهاتف عيانا وقد تنزل عليه يقظة بعد أن كلمه قبل ذلك مناماً، ثم حدثني بتلك الرؤيا فقال:

- قال لي: أَيُّهَا الغَافِي لا يَبْرَحُ عِنْدَ مَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، لَقَدْ لَقِيتَ مِنْ عَمَلِكَ هَذَا نَصَباً. فَتَعَالَ نُؤْتِكَ مِنْ لَدُنَّا عِلْمَاً. قُمْ يَا مُحَمَّدْ وَاتْرُكْ مَدِينَةَ الرَّجَاسَاتِ، التِي رَضِيَتْ أَنْ تَكُونَ مَسْكَنَاً لِلشَّيَاطِينِ وَمَأْوَىً لِكُلِّ رُوحٍ نَجِسْ، وَمَهْوَىً لِكُلِّ طَائِرٍ نَحِسْ. فإنه مِنْ خَمْرِ زِنَاهَا قَدْ شَرِبَ الدُّخَلاءُ وَالغَاصِبُونَ، بَعْدَ أَنْ تَزَيَّنَتْ لَهُمْ فَزَنَوْا مَعَهَا وَفِيهَا، وتِجَّارُ الأَرْضِ قد اَغْتنَوا مِنْ وَفْرَةِ نَعِيمِهَا. اخْرُجْ مِنْهَا لِئَلَّا تَشْتَرِكَ فِي خَطَايَاهَا المُوبِقَاتْ فتُصِيبَكَ اللَّعْنَاتُ التِي سَتَسْقُط عَلَيْهَا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَات، فعمَّا قَرِيبٍ ستَتَلَقَّى أعظم الضَّرْبَات، وتَسْقُطَ جُدْرَانُهَا وَأَسْوَارُهَا في جَمِيعِ الأنحاء والجِهَاتْ. لِأَنَّ خَطَايَاهَا لَحِقَتِ السَّمَاءَ وَرَأى اللهُ آثَامَهَا. وَعما قَلِيلٍ سَوْفَ يَأْتِيهَا مهديُ الله بِسُلْطَانٍ عَظِيمٍ مِنْ أَتْبَاعِه وَخُلَصَائِه، فَتَسْتَنِيرُ الأَرْضُ مِنْ بَهَائِه وَتَتَطَهَّرُ الخُرْطُومُ بعد لِقَائِه. وَهو بعدما يَخْرُجُ مِنْهَا غَاضِباً سيَعُودُ إِلَيْهَا فاتحاً غَاصِبَاً، فيعَاقِبُهَا كَمَا عَاقَبَته بَلْ يضَاعِفُ لَهَا العُقُوبَةَ أَضْعَافَاً نَظِيرَ أَعْمَالِهَا. وَمِثْلَمَا مَزَجَتْ لَهُ مِنَ الكُؤوسِ فَسيمْزِجُ لَهَا ضِعْفَاً. وَبِقَدْرِ مَا دَنَّسَتْ نَفْسَهَا بِالرَّذِيلَةِ سَيُطَهِّرُ شَوَارِعَهَا بالحُزْنِ وبُيُوتَهَا بِالعَذَابِ، وَبِقَدْرِ مَا مَجَّدَتْ الدَّخِيلَ فَسَيَتَوَلَّى تَنْكِيسَ أَعْلَامِهِ وَتَحْطِيمَ أَزْلامِهِ. ثُمَّ يَرْفَعُ شَأْنَ المجاهدين الأَنْصَارْ فِي جَمِيعِ البِلْدَانِ وَالأَمْصَار. وَقَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا سيُشْعِلُ قُلُوبَ أَهْلِهَا بِبَرْقِ الوَعِيدِ فَيَقْتُلُ فِيهِم الأَمَلْ، وَيُصِمُّ آذَانَهُمْ بِرُعُودِ الخَوْفِ وَالوَجَلْ، قَبْلَ أَنْ يَصُبَّ عَلَيْهَا أَمْطَارَ الرُّعْبِ إِذَا حَانَ الأَجَلْ. وَحِينَ يدْخُلُهَا يَفْعَلُ كُلَّ هَذَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ. يضاعِفُ لَهَا الضَّرْبَات وَيِنْزِلُ عَلَيْهَا النَّكْبَاتَ مِنْ مَوْتٍ وَحُزْنٍ وَجُوعٍ ثُمَّ يُحْرِقُهَا بِالنَّارِ لِتَعْلَمَ أَنَّ رَبَّ الجُنُودِ قَوِيٌّ مَتِين. وَسيجْعَلُ بَنِي الأَصْفَرِ يَنُوحُونَ عَلَيْهَا وَكُلَّ الذِينَ زَنَوْا وَتَنَعَّمُوا فِيهَا يَبْكُونَ حِينَمَا يَرَوْنَ دُخَانَ الحَرِيقِ فِي عَرَصَاتِهَا، وَنِسَاءَهَا يَنُحْنَ فِي شُرُفَاتِهَا.

وسيجْعَلُ سُفُنَهُمْ وَافِدَةَ البِحَارِ إِلى الأَنْهَارِ تَدُورَ مُنْقَلِبَةً عَلَى أَعْقَابِهَا وَحِينَ تَقْطَعُ الرَّجَاءَ مِنَ الخُرْطُومِ وَمَنْ فِيهَا تُصْلِيهَا بِالحِمَمِ وَتَرْمِيهَا بِالشُّهُبِ وَالسَّخَمْ ثم تُوَلِّي الأَدْبَارَ وَتَعُودُ بِالخَيْبَةِ إِلَى الدِّيَارِ. وَيْلٌ لِجَابِيَةِ الضَّرَائِبِ مِنْ شَعْبٍ مُهْدَرِ الكَرَامَةِ غَاضِب. وَيْلٌ لِلْمَدِينَةِ الحَصِينَةْ مِنْ شَعْبٍ يَحْمِلُ الضَّغِينَةْ. سَوْفَ يَبْكِي عَلَيْهَا تِجَّارُ الأَرْمَنِ وَالشَّرْكَسِ وَاليَمَنِ وَالشَّام يَنُوحُونَ عَلَى تِجَارَتِهِمْ التِي كَسَدَتْ، وَأَحْلَامِهِم التي فَسَدَتْ، وَأَمْوَالِهِم التِي أُهْدِرَتْ، وَنِسَائِهِم اللائِي أَصْبَحْنَ سَبَايَا لِغَيْرِهِمْ وَهُمْ يَنْظُرُونَ. لأَنَّهُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ تَأْتِيهَا الجُيوشُ مِنْ شَتَّى الأَقْطَار، وَيَدْخُلهَا الأنصارُ قَبْلَ طُلُوعِ النَّهَار. وَيَخْرُجُ مِنْهَا الفُجَّارُ وَالتِّجَّارُ يَبْكُونَ وَيَنُوحُونَ. وَيْلٌ لِلْمَدِينَةِ الأثِيمَةِ التِي تَسَرْبَلَتْ بِالزِّنَا والتَحَفَتِ الرَّجَاسَات. نِسَاؤُهَا المُتْرَفَاتُ يُهِلْنَ التُّرَابَ عَلَى رُؤوسِهِنَّ يَنُحْنَ وَيَبْكِينَ النَّعِيمَ الذِي مَضَى، وَزَمَانَ العُهْرِ الذِي انْصَرَمَ وَانْقَضَى. هنالِك يفْرَحُ حمَلَةُ الحِرَابِ وَالنُّشَّابِ، وَلابسو المُرَقَّعِ والجبَبِ والجِلْبَابْ، وَرَاكِبو الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجْ. يدْخُلونَها قَبْلَ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ، فيَنْتَهِي عَهْدُ الدَّخِيلْ، وَيَطِيبُ لَهُم فِي قُصُورِهَا المَقَامُ وَالمَقِيلْ. في ذلك اليوم تخرَسُ أَصْوَاتُ المُرْجِفِينَ، وَتنْقَطِعُ تَرْنِيمَاتُ المُغَنِّينَ وَالعَازِفِينَ، وَتَرْجُفُ أَصَابِعُ الضَّارِبِينَ بِالقِيثَارَةِ وَالمُزَمِّرِينَ. لَنْ يُسْمَعَ فِيها حَنْحَنَةٌ وَلا هَنْهَنَة، ولا صَوْتُ عَرِيسٍ وَعَرُوسٍ فِي خِدْرِهَا، إلا أَنِينُ السَّبَايَا شَهْوَةً تَحْتَ فُحُولَةِ الرِّجَالِ الذِينَ دَخَلُوهَا عُنْوَةً فَسَبَوْا المُتْرَفَاتِ، وَامْتَلَكُوهُنَّ مَحْظِيَّاتٍ، وَاتَّخَذُوهُنَّ عِنْدَهُمْ إِمَاءً وخَادِمَاتْ. قُمْ يَا أَيُّها المُنْتَظَر...

وقبل أن يكمل ذلك الهاتف حديثه يا عائشة صحوتُ فَزِعَاً مُتَعَرِّقَاً ترجُفُ أوصالي وتضطرمُ فرائصي، فأسرعتُ إلى بيتي متدثراً بِخِرَقِي وأسمالي. لكن ذلك الهاتف صَدَّقَ ما كان في ظني من

إلهام، وأزال ما كان يدورفي خلدي من أوهام، فأيقنتَ أن زمان المهدي قد أظل، وأن هذا بشيره ونذيره قد أطل، فيا ترى من هو ذلك المنتظر يا عائشة؟

قلت له: هذا كلام عجيب بالفعل يا محمد احمد.

- كان هذا هو أول عهدي به. وكان يوم حدثني خائفاً مضطرباً، فقد أوشك أن يقول دثروني زملوني، وقد حيرني في ذلك اليوم بغرابة حديثه، وعجيب حكاياته وأقاصيصه. وكنت قد علمت من زوجته أختي فاطمة أنه ليس رعديداً جباناً ولا متوهماً، مثلما أنه ليس من الذين يتطلعون للرئاسة أو يتصدرون للحكم والسياسة، من متصيدي الشهرة. وهو الذي كنا نراه أنا وأختي منذ الصبا ممتلئاً زهداً وتواضعاً، ومترفعاً عن مخالطة المترفين، فهولا يغشى أندية الشباب اللاهين الغافلين، بل ويعتزل الأعراس والأفراح ويمشي وحده. وكانت الفتيات والصبايا يتغامزن حين يرينه، ويتحدثن عنه بالإعجاب ويمدحنه ويتغزلن فيه هامسات كلما مر بهن في الطريق، أو لمحنه في أحد طرقات وأَزِقَّةِ الفريق. فلما كلمني في ذلك اليوم علمت أنه لم يفعل ذلك إلا بعد ما رأى أمراً عظيماً مهولاً، فلم يُعرف عنه من قبل أنه يكلم النساء قط، حتى أختي فاطمة زوجته وابنة عمه كان زاهداً فيها ومنشغلاً عنها، مع أنه رزق منها الولد. ولذلك فحين خاطبني استمعت له وأصغيت بجميع حواسي، فكلمني بذلك الكلام، وكان تقياً عفيفاً مثلما يكلم الأخ أخته فاستوعبته عنه.

احفظ عني يا ولدي، فمهما كذبوا على محمد احمد بأنه كان يسعى للمهدية ويطلبها في أول عهده فاعلم أن ذلك تزوير وكذب وبهتان، فهو لم يقل في أي يوم إنه هو المهدي أو إنه هو المنتظر إلا بعدما قابل هذا التعايشي، مع أنه رأى ذلك الحلم العجيب وتلك الرؤيا المدهشة من المبشرات بمهدي الزمان قبل أن يلقاه عبد الله. والتعايشي كان يبحث عن المهدي ليتبعه. ولو كان يملك ما عند محمد احمد من صفات لنسب المهدوية إلى نفسه ودعا الناس لاتباعه، لكنه لم يجرؤ أن يدعي أنه هو المنتظر.

وهو حين سمع عن محمد احمد ثم قابله بعدما جرب مع كثيرين غيره وقع في روعه أن هذا هو أقرب الناس لصفات المنتظر، فسعى لتحقيق ذلك بكل ما أوتي، حتى إنه نسب إليه أشياء لم يقلها، وأوقع في روعه أنه هُوَ، وليس غيره. وبالرغم من أن محمد احمد أنكر عليه ذلك في وقتها إلا أنه صدقه آخر الأمر. لكن يقيني أنا زوجته عائشة أنه كان متجاذباً بين ما يعلمه من أن هذا هو زمان المهدي، وزهده في أنه هو المنتظر، بيد أنه آخر الأمر لم يقدر على رد ما توافق عليه الناس من دعوة المهدية، لكونها دعوة لدفع الظلم وطرد الترك، إذ كان كثيرون في زمانه يبشرون بالمنتظر، وأن وقت خروجه قد ظهر، فأوانه أزف وعهده قد عُرف. سيما وأنه حاول كثيرون أن يوحوا إليه بالفكرة، فدافعها وأنكرها في قلبه باديء ذي بدء خشية أن يفتنه بريقها، ويهلكه حريقها، لكنه لم يقل بها إلا حينما رأى أن الناس لا ينادونه إلا بها، وأن جميع من تبعه أجمعوا أنه هو المهدي وأنه المنتظر، وتوافقوا عليه، فَصدَّق ذلك وأشربه في قلبه ثم لم يقبل غيره. وقد يكون ذلك وافق في نفسه ما قرأه من كلام الشيخ الأكبر وكلام حجة الإسلام، ثم ما ألح عليه به عبد الله في أنه المهدي تارة بالإشارات، ثم بصريح العبارات. وحين أكثر له من ذلك يوم زعم له أنه رأى النور في وجهه، وأنه تنطبق عليه جميع العلامات، فواجهه يومها غاضباً بعدما أكثر عليه في أن يبايعه الناس وسرد له الحكايات التي يتداولها المتداولون في كل مكان، فقال له محمد احمد:

- أنت تقول إنني أنا المنتظر؟

قال له التعايشي:

- لم يخالجني شك أنك أنت هو.

قال محمد احمد:

- وتقسم لي على ذلك وأنك صادق؟

فحلف له بأغلظ الأيمان أنه يعتقد ويؤمن من قلبه أن محمد احمد هو المنتظر وأن عبد الله رأى هذا والجميع رأوا هذا ويعرفون.

قال محمد احمد:

- وما علامة هذا وما دليلك عليه؟

قال عبد الله:

- دليلي هو امتناعك عن قبول البيعة مثلما فعلتَ الآن وهروبك منها، فالمهدي لا يعلم أنه هو المهدي، في أول أمره وهذه علامة، وهو يفرُّ ممن سيبايعونه مثلما فعلت أنت معي في المرة السابقة، وفي هذه المرة أيضاً، وأن الناس سيحاصرونك بها مثلما نفعل معك الآن. وأنك قد قرأت أحاديث خروج المهدي بلا ريب، لكن الله أنساك إياها رغم ما عندك من علم وما فتح الله عليك من بصيرة، فهذا دليل آخر. وأنك بعدما علمتها قد أبيتها ورددتها حتى لا يصيبكَ العُجب والتعالي بمقامات الولاية على الناس، أو تقدمهم في الصفوف، فهذا دأب الصالحين والمصلحين بلا ريب، فإنهم مشاعل النور ومصابيح الهداية، وقلوبهم أبعد ما تكون عن أن تظن بنفسها مقاماً دون بقية الناس، أو منزلة عند الله تعالى أعلى من منازل العباد. فهذا هو حال مهدي آخر الزمان ولا ريب أيها المنتظر. بل إنني أعلم أنَّ تأخُّرك عن قبول البيعة، ورفضك لها هو لرجائك من الله أن يكتب لك التوفيق والسداد، والعون والرشاد، مثلما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة: »يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا«، وها نحن اليوم نعطيكها من غير مسألة منك فاقبلها.

قال هذا ومَدَّ يَدَهُ ليبايع محمد احمد لكن محمد احمد بعدما بسط يده قبضها بسرعة ثم قال له:

- ما زلت غير مصدق أني أنا هو!.

قال عبد الله:

- سوف أعطيك علامة تعلمها أنت عن المنتظر فلو تحققت فلا ريب أنك أنت هو.

- وما هي؟

- تواتر الرؤى المنامية والهواتف المبشرة بمهديتك، وخروجك من مدينة الرجاسات غاضباً، وها أنت قد فعلتها، ثم إنك ستدخلها فاتحاً غاصباً بعد أن ينصرك الله على جيشها الذي يعاديك ويحاربك.

- وسيحاربونني؟

- نعم فمقامك هذا هو الذي سيؤلبهم عليك فيكذبونك أول الأمر، ثم يحاربونك، وحينها سيخسف الله بجيوشهم.

قال محمد احمد:

- وتحمل عني وزرها إن كنتَ كاذباً؟

قال عبد الله:

- لا وزر فيها بل فيها الأجر كله إن شاء الله. لكنك أنت هو المنتظر فابسط يدك نبايعك!

قال محمد احمد:

- تشهد لي بذلك وتحمل عني وزرها إن كان غير ذلك؟

قال عبد الله:

- لعنة الله على الكاذبين. أنت هو مهدي هذا الزمان ولكل زمان مهديه يا منتظر!

قال جدك قالت لي عائشة:

- فصدقه محمدٍ احمد وكان صِدِّيقَاً، وقَبِلَ البيعةَ من عبد الله، وسرعان ما بايعه أصحابه الذين تبعوه مذ كان في الأَبَيِّضْ فقد كان شيخ طريقة صوفية وله أتباع. ثم أشربها في قلبه حين اجتمع الناس حوله. ولم يزل يتقلب في الجذب وقد تبطنته دعوة المهدية، حتى ترك الدنيا وطلقها بالكلية، وأقبل على أصحابه يأمرهم وينهاهم بكونه المنتظر، فصدقه الناس واتبعوه ونصروه وآزروه. ثم كان ما كان مما سأقصه عليك يا ولدي من العجائب.

فإن أول كلام قاله لي المنتظر هو أنه قصَّ عليَّ تلك الرؤيا المنامية، فكانت أشبه بالخيال والأساطير ثم تحققت كلها فيما تلا من الزمان، ووقعت بتفاصيلها ياولدي. لكن أعجب يوم رأيته منه كان هو آخر يوم في حياته. وبين هذين اليومين حكايات تشيب لهولها الولدان. وسوف أقصها عليك كلها لتعيها وتنقلها إلى من بعدنا يا ولدي فاسمع مني.





ميمونة المجنونة

قال لي أبي حين كنا في الترام متوجهين صوب الخرطوم:

- كان جدك قد عاصر المهدي في شبابه ورآه قبل أن يخرج من الخرطوم غاضباً مهاجراً. سألته عن سبب خروج المهدي من الخرطوم أول أمره فأخبرني أنه زمن الترك كان كل شيء متاحاً ومباحاً، الخمر والنساء والغلمان. والأتراك كانوا يعلمون لكنهم تغاضوا عن كل ذلك فلم يتدخلوا. الخرطوم سكنتها كثير من الأجناس فأباحوا لأنفسهم كل شيء، واستحلوا الحرمات. واشتهرت بعض أحيائها بالعهر وبنات الهوى من المهاجرات القادمات من المجهول. كن في ذلك الزمان مستعداتٍ لمضاجعة أي رجل دون أن تحس الواحدة منهن بالذنب أو الخطيئة. كن يفعلن ذلك لكسب العيش وبعضهن لمجرد المتعة. كانت الخرطوم في ذلك الزمان مدينة مترفة، صاخبة ليلاً وهادئة ساكنة نهاراً. فالقوم كانوا يصخبون ليلاً ولا يخمدون ولا ينامون إلا إذا طلع الصباح. القصور ذات الجدران العالية منتشرة في كل مكان. ووراء تلك الجدران يحدث الكثير. وحدائقها العامة تمور بالقصف والعصف، والمرح والترف والمجون. كنا نقصد المقاهي والمجالس، وكنا يومها صبياناً أتقياء، لكنا لم نكن عمياناً ولا أغبياء، فقد كنا نرى ونفهم ما يدور حولنا. كان التجار عندما يفتحون التَّآيَةَ أو المنزلة - وهي مثل السوق المركزي الآن – ينصبونها على أطراف السوق ولم يكن الناس في القديم يعرفون مطاعم ومحلات بيع الطعام، فقد كان قبل ذلك يُمْنَحُ بلا ثمن للمسافر وعابر السبيلِ، بل إنه من العيب أن يباع، لكن المدن التي بناها الاتراك هي التي علمت الناس في هذه البلاد بيع المأكول والمشروب بالثمن.

كنا نذهب للمنزلة لنشاهد محلات بيع الطعام، والأنَادِي التي تباع فيها الخمور. ونسمع فيها الدَّلُّوكَة (الطبول البلدية) والنساء يغنين لهؤلاء الندامى الذين يبذلون الأموال لشراء المَرِيسَةِ والعَرَقِ (الخمور البلدية المحلية) يشجعنهم على بذل المزيد وإنفاق ما في جيوبهم من النقود:

رِجَالْ تشْكِيلَه جَابُوا الدَّهَبْ بِالكِيلَة

رِجَــالْ شَنْقُــولْ الخَاتِيــنَ القُول

يمدحنهم بأنهم كرماء جلبوا الذهب من جبال بني شنقول فاستحقوا المدح كثيراً، فالذهب الذي يجلبونه من هناك يُكال بالكيلة، فلا يوجد ما يقال فيهم أو يعاب عليهم. وبالطبع فإن هذا المدح يدفع هؤلاء السكارى والمخمورين لبذل أموالهم بغير حساب. وعندما يقارب المشروب الذي في الزِّير (دَنّ الخمر) على الإنتهاء وترغب النساء أن يدفع لهن السُّمَّار المزيد من الأموال ليعاودن ملء هذه الدنان لهم يغنين:

الله لينا الله لِينَا

الله لينا الدَّنْ تَكِينَا

أي ادفعوا المزيد فقد فرغت دنان الخمر بعد أن أملناها وسكبنا آخر قطرة فيها.

قلتُ لجدك:

- وهل كان محمد احمد يومها في الخرطوم؟

فقال لي:

- نعم حين كنا صغاراً، وكان يمر فيسمع كُلَّ هذا وهو عابر في الطريق، وكان ينكره أشد الإنكار لكنه لا يقدر على تغييره. ثم خرج غاضباً فغادر الخرطوم. ما تزال كلمات ميمونة في وصفه ترن في أذني حتى بعد مضي كل هذه السنين.

- من هي ميمونة؟ وماذا قالت؟

- ميمونة المجنونة؟ إحدى الصبايا اللائي عشن في الخرطوم في تلك الأيام. كانت صبية فائقة الجمال. قابَلَتْ محمد احمد قبل خروجه وفُتنت به وتَوَلَّهَتْ بحُبِّه. ولم تكن تكتم ذلك ولا تخبئه ولا تستحي منه. كانت تسير وراءه وتتبعه أينما ذهب، والعجيب في أمره هو أنه كان يراها تسعى خلفه ثم لا يزجرها ولا ينهاها، وربما كان يعلم أنه لو زجرها لازدادت تعلقاً به، فكان يمشي سريعاً علَّها تيأس منه وقد كان ذريع الخطوة، لكنه كلما التفت وجدها تسعى وراءه وهي تلهث وقد تصبب عرقها من التعب، فكان يرق لها ويبطيء خطوه. قالت إنها ذهبت إليه أول مرة ليكتب لها حجاباً يحفظها من العين، فالناس كانوا يصفونها بأنها أجمل جميلات الخرطوم رغم أنها كانت صبية صغيرة لم تبلغ الحلم بعد. رأينا ذلك الحجاب الذي كتبه لها فقد بقيت تلبسه حول رقبتها حتى بعد خروج المهدي، ولما سألناها عن سر هذا الحجاب أخبرتنا بفخرٍ، ثم سألناها عن كاتب الحجاب فتحدثت عنه بجرأة فائقة. قالت تصفه:

- محمد احمد الشاب الجذاب! كتب لي الحجاب من العين والسحر، لكنه سحرني بوسامته وفتنني بجماله. تعلقتُ به لدرجة أني أبقيت ذلك الحجاب مُعَلَّقاً حول رقبتي فلا أخلعه حتى حين أتعرى لأبترد. وعندما ألمس ذلك الحجاب أحس كأن يده هي التي تلمس رقبتي وليست يدي التي تلمس الحجاب. كانت له نظرة ساحرة وابتسامة فتاكة قاتلة. فإذا ابتسم تبدو ثناياه. وفي وسط الثنيتين العلويتين توجد فَلَجَةٌ. تعرفون ما معناها؟ إنها تعني أن صاحب الفلجة سيكون محظوظاً وموفقاً في حياته. وله خالٌ في خَدِّهِ الأيمن زاده حلاوة. فجميع بنات الخرطوم كن يعشقنه ويمتن هياماً به. ورغم ذلك كن لا يجرؤن على الكلام معه، لكني كنت أفعل، فكنت أنفرد به دونهن. لكنه إذا تحدث معهن – ونادراً ما كان يفعل- فله طريقةٌ حلوةٌ وجاذبيةٌ ولطفٌ في الحديث، وكنت أغار عليه منهن فأزجرهن وأَسُبُّهُنَّ، وهو يتبسم ولا ينهاني.

قلنا لها:

- صفيه لنا أكثر يا ميمونة!

حينها فرحتْ فقد أحستْ أنَّا نُقِرُّ لها بالانتماء له، وأنها تعرفه أكثر مما نعرفه، والنساء يُحببن امتلاك الرجال، والانفراد بالأشياء دون غيرهن من خلق الله. قالت تصفه في فخرٍ وكأنه أحد مقتنياتها:

- محمد احمد؟ من مثله؟ أنتم لا تشبهونه. فأي بنت كانت تراه ثم لا تشهق محبة له وتولهاً به؟ كان رجلاً فحلاً فكان اسماً على مسمى. وكان قوي البنية، وبشرته سمراء داكنةٌ مصقولةٌ وبَرَّاقَةٌ. يلبس الجبة المُرَقَّعَةَ بِشرائط قطنية متعددةٍ الألوان، ويضع فوق رأسه طاقيةٌ بيضاء، يلف حولها عِمامَةً

ويلبس سروالا فضفاضا وصندلا في قدميه. وأصابع يديه طويلة ومستقيمة، وأظافره نظيفة ومقصوصة ومرتبة دائماً. لكني مهما قلت فلن أستطيع وصفه فهو عصي على الوصف.

قلت لها أستفزها وأحثها على قول المزيد:

- أنتن يابنات الخرطوم جريئاتٌ وأعينكن قوية! أي لا تعرفن الحياء.

قالت:

- نحنُ جريئات؟ إذن أنت لا تعرف شيئاً عن الخواجيات بنات الريف! فنحن بنات البلد نستحيي، إلا أن بنات الريف ليس عندهن مثل ما عندنا من الحياء. ما شُفْتَ الخواجية في شاطيء النيل تلبس الرداء القصير وتمشي فتُقَلِّبُ رِدْفَيها، وتَخْطِرُ في شوارع الخرطوم يميناً وشمالاً متغنجةً مثل البَطَّة السمينة، ومُتَخَيزِلَةً في مشيها غير مكترثةٍ ولا يهمها أحد من الناس، والأولاد خلفها وكأنهم فراخ! يتبعونها قائلين: يمين، شمال، يمين، شمال! ورغم ذلك فلا ينالون منها إلا عجيزة سمينة رابية تتقلب يميناً وشمالاً!

ضحكتُ وانصرفتُ متعجباً من جرأتها لكنها نادتني قبل أن أبتعد فقالت:

- هل تصدقُ أني مازلت أنتظر محمد احمد بعد أن يدخل الخرطوم لأُذَكِّرَهُ بهذا الحجاب؟ ومن يدري فربما كتبني فيه حتى لا أعرف رجلاً غيره.

قلتُ لها:

- المنتظر يفعل مثل هذا؟ أنت مجنونة!

قالت:

- بمحمد احمد؟ نعم مجنونة!

قال لي جدك بعد أن ملأ رئتيه بالهواء ثم زفرهما وكأنه يطرد مع الزفير أفكاراً لا يريدها:

- ولذلك يسمونها ميمونة المجنونة. ذَكِّرْنِي أن أحدثك عن مآل هذه البنت يوماً فلها قصة في الزهد عن الدنيا هي أغرب من قصة المهدي نفسه. وقد كان حواري هذا معها قبل دخول الأنصار الخرطوم بقليل، ثم رأيتها بعد ذلك يوم دخلت جيوش المهدي، فكانت تلبس جلباباً متسخاً وقد نفشت شعرها وكأنها بُعِثَتْ من القبور في يوم النشور، وكانت جموع الأنصار تراها في شوارع الخرطوم فلا يتعرضون لها رغم أنها كانت تسبهم وتشتمهم بقبيح القول.

صمت برهة ثم عاود الحديث فقال:

- لكن محمد احمد هو مثل ما قالت هذه البنت المجنونة وأكثر. كان طويل القامة كبير الرأس عريض الوجه أسمر اللون أدعج العينين أزج الحاجبين واسع الجبين أقنى الأنف رحب الصدر واسع الفم عريض الشفتين عظيم المنكبين ضخم العظام واسع الكفين والقدمين سائل الأطراف مفلج الأسنان.

قال لي أبي فقاطعت جدك قائلاً:

- هذا يشبه الوصف الذي يقرأونه في الموالد للنبي محمد عليه الصلاة والسلام يا أبي!

ابتسم ابتسامة ساخرة لكنه استمر يصفه:

- كانت وجنتاه مزينتين بشلوخ على كل وجنة ثلاثة شرائط أفقية، وكان مستدير اللحية واسعها خفيف الشاربين حفيفهما، ويحلق شعر رأسه ويحسن لحيته. واعتاد أن يجلس القرفصاء على فروة من الضأن ويجثو عند الطعام على إحدى ركبتيه. رأيته بعدما دخل الخرطوم يدخل عليه الداخل فيخلع نعليه ويتقدم إليه حبواً حتى يقرب منه فيلمس يده ويرجع عنه قليلاً ثم يكلمه وهو منكس الرأس ويخاطبه بقوله يا سيدي. وبعد الفراغ من حديثه ينصرف راجعاً بظهره.كان دائم الابتسام فلقب بأبي فلجة. وكان يواسي أصحابه دائماً وكان وفياً لهم وكثير العفو عنهم. هذا بعض وصفه ولكن دعني أكمل لك حكاية ميمونة. فالشائعات بدأت في الخرطوم عن قرب ظهور المنتظر. وكانت ميمونة مسافرة بالباخرة جنوباً رفقة أبيها التاجر حسين. وحينما وصلت الباخرة جزيرة أبا ألقت مراسيها وتوقفت، وأطلق الريس الصافرة. فتساءل الركاب عما يجري، وصعدت ميمونة إلى السطح لتنظر فوجدت أن جميع الركاب قد تجمعوا في السطح في الناحية التي تلي جزيرة أبا وقد رفعوا أيديهم يقرأون الفاتحة ويدعون ويبتهلون. فسألتهم:

- ماذا يجري ياناس؟

قالوا:

- يوجد شيخ كان مختفياً في السرداب سبعمائة وخمسين سنة والآن ظهر هنا في الجزيرة والناس يقولون هو المهدي المنتظر.

وكان في الباخرة رجل يطلقون عليه الفقير المجذوب فلما سمع هذا الكلام قال:

- ياجماعة قولوا كلاماً معقولاً. بشر يختفي سبعمائة وخمسين سنة ويبقى حياً؟ أي أكثر من مكث أصحاب الكهف في الكهف ولا يذكره الله في القرآن؟ فالله جل جلاله يقول: »وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ«. ياناس هذه فتنة فاستغفروا ربكم.

لكن لم يُلْقِ له أحدٌ سمعاً ولم يأبه لكلامه إنسان. بينما تعجب بعض الركاب من صنيع الناس هذا وقالوا حتى بواخر الحكومة تتوقف عند هذا الشيخ وتطلب بركته وترسل له الهدايا؟ إذن فلا بد أنه شيخ مبارك فعلاً، وتحمس البعض الآخر من الركاب فأخبروهم بكرامات هذا المهدي وقالوا إن أربعين رجلاً شربوا من إناء لبن صغير أعطاهم إياه ولم ينفد اللبن من الإناء بل بقي منه شيء بعد أن شرب منه كل هؤلاء. وأن اسم المهدي قد وجد مكتوباً على بيض الطيور وورق الأشجار في تلك الأنحاء. وسأل التاجر حسين والد ميمونة أصحابه التجار من هو هذا المهدي؟ ولما أخبروه باسمه ونسبه دُهش وقال لهم:

- معقول؟ هذا الولد الذي كان يشتغل بنجارة المراكب في الخرطوم وكنت أَمُرُّ عليه وهو يعمل فأنفحه بحفنة من التمر ولم يكن شيء أحب إليه من ذلك التمر. كنت أرى في عينيه علامات الذكاء لكن خيالي لم يبلغ أنه سيقول يوماً إنه المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. لقد رأيته حين كبر

قليلا وحفظ القرآن يطوف في الخرطوم درويشا يكتب الأحجبة للنساء يعلقنها في أعناقهن، وللرجال يلبسونها في أذرعهم بزعم أنها تحميهم من الشرور والأمراض.

حين قال والد ميمونة إنه يعرف هذا الرجل منذ كان صبياً في الخرطوم وأنه كان يعمل في التجارة بالمراكب تذكرت ميمونة أن هذا الرجل هو الذي كتب لها الحجاب تميمة حين كانت صبية صغيرة، وتذكرت أنها كانت تعرفه، وقد تولهت به وكانت تتبعه أينما ذهب. فقفزت من المركب إلى الماء. فما كان من ريس المركب وعدد ممن معه إلا أن قفزوا وراءها ليعيدوها إلى الباخرة. لكنها كانت قد سبقتهم فسبحت إلى البر الآخر ثم ركضت بأقصى قوتها نحو الغار الذي فيه الشيخ.

البعض بقوا في الماء متحيرين من فعلة هذه الفتاة، ثم عادوا إلى المركب لكن والدها سبح حتى عبر إلى البر الآخر وركض خلفها. ومنذ ذلك اليوم أطلق الناس عليها اسم ميمونة المجنونة فقد ظن بعضهم أنها قفزت لتنتحر في النهر وحين عبرت إلى البر الآخر قال بعضهم إنه حدث لها جذب صوفي.ثم لحق بها أبوها فوجدها عند فم الغار تنادي باسم محمد احمد فأيقن أنه أصابها الجذب ببركة هذا الشيخ، فأمسكها وربطها بحبل وأعادها إلى الباخرة. لكنه سئم منها بعد مدة قصيرة حين علم أنها ليست مجنونة ولا مجذوبة بل متولهة بحب ذلك الرجل. و لما أطلق الناس عليها هذا الاسم الجائر غضب حسين وحل رباطها وأطلقها وقال لها افعلي ما شئت فلم أر في العالم من هو أعقل منك بل إن الناس في هذا الزمان هم المجانين.

كانت ميمونة حين لقيته أول مرة قد علمت أن في هذا الرجل شيئاً لله.

يزعمون أنها قالت له:

- أنت رجل مبارك فباركني.

قال لها:

- تتوهمين!

قالت له:

- بل واثقة مما رأيت. باركني يا شيخ.

قال لها:

- ماذا رأيت؟ أنا رجل مسكين وأخشى الفتنة.

قالت له:

- رأيتهم يطيرون فوقك ويحلقون حولك. خذني إلى عالمك هذا.

قال:

- لن تقدري! ولا أقدر.

قالت:

- بل تقدر ولا شأن لك بما أقدر عليه وما لا أقدر. باركني ياحبيبي.

قال لها:

- لست حبيبك أيتها المجنونة!

قالت له:

- هذا أحلى مدح سمعته من أحد من الناس. أنا ميمونة المجنونة! ولا يهمني. باركني!

وحين ألحت عليه وأكثرت من السير وراءه كل يوم ناداها وقال: تعالى فجاءت ثم جلس تحت ظل شجرة وقال لها:

- أريد أن أعقد معك صفقة!

قالت:

- قبلتها!

قال لها:

- تقبلينها قبل أن تعرفي ما هي؟

قالت:

- قد عرفتها قبل أن تنطق بها.

قال لها:

- وما هي إن كنت حقاً قد عرفتها؟

قالت:

- تكتب لي الحجاب وأزور قبر أمك كل يوم لأقرأ الفاتحة على روحها.

فأصابه شيء من الدهشة والذهول وقال:

- سبحان الله العظيم الذي أخبرك بما يدور في رأسي!

ثم كتب لها حجاباً تحت تلك الشجرة وقال لها:

- البسيه في رقبتك واخلعيه حين لا تكونين طاهرة عندما تبلغين الحلم.

قالت له:

- ألبسنيه أنت. ضعه حول رقبتي بيديك!

فضحك لكنه ألبسها ذلك الحجاب. ومنذ ذلك اليوم استمرت ميمونة تتبعه مثل ظله، حتى رحل فجأة وغاب عن الخرطوم. لكنها بقيت وفيةً له تَذْكُرُه كل حينٍ وآنٍ، وتسير في الطرقات التي اعتاد السير فيها، وتذهب إلى قبر أمه فتبقى هناك الساعات الطوال تدعو له ولأمه. لكنه حين كان في الخرطوم كانت تعرف كيف تجده فتتبعه مثل قطة صغيرة تسعى خلف أمها.

قال جدك:

قالت عائشة: ما زال محمد احمد يحدثني عنها حتى غِرْتُ منها، بعد إذ لم أكن أغار من نسائه. قال لي بعدما دخل الأنصار الخرطوم: يا عائشة غلبتني عيني منذ يومين فرأيت في المنام تلك الفتاة التي يقال لها ميمونة وهي التي كانت تتبعني قبل خروجي من الخرطوم وسمعت هاتفاً يقول مالك أغضبت ميمونة فقتلت أبويها وهي التي أرادت أن تكون زوجتك في الجنة، فتذكرت تلك الصبية الصغيرة التي كانت تتبعني وأن اسمها ميمونة. فلما أصبحتُ خرجتُ خِفْيَةً متلفعاً بعمامتي حتى لا يعرفني أحد وأخذت أبحثُ عنها فقادتني قدماي إلى حيث كانت تتبعني حتى وصلتُ بيتاً كنتُ أراها تخرج منه من قبل، فسألت سكان ذلك البيت عنها وقلت لهم: توجد هاهنا فتاة يقال لها ميمونة؟ فقالوا: ميمونة المجنونة ماذا تريد منها؟ وعجبوا ماذا أريد من فتاة مثلها! فقلت لهم هي أعقل منكم، فأخبروني أين هي؟ فقالوا إنها خرجت من الخرطوم بعد دخول الأنصار ومقتل أمها ووالدها التاجر ظلماً، واستيلاء الأنصار على أمواله، فاتخذت الخلاء مسكناً لها وأنها ترعى الغنم بالنهار وتشتري بأجرتها تمراً فتفرّقه على الفقراء، ثم تدخل في الليل خلوة لها فلا تدع أحداً ينام من كثرة البكاء والصياح. قلت لهم: فما تقول في صياحها؟ قالوا تقول: عجباً للمحب كيف ينام كل نوم على المحب حرام فقلت لهم: والله ما هذا بكلام المجانين، دلوني عليها، فقالوا: هي في الخلاء ترعى الأغنام. ووصفوا لي مكانها، فذهبت إليه، وإذا بميمونة التي كتبت لها الحجاب فقد عرفتها حين رأيته معلقاً في عنقها وقد اتخذت محراباً وكانت قائمة تصلي، فلما أحست بي أوجزت صلاتها ثم أقبلت عليّ متسائلة فبادرتها بالسلام. قلت: السلام عليك يا ميمونة قالت: وعليك السلام يا حبيبي، قلت: رأيتك البارحة في المنام، فأعرضتْ عني وقالت: ألم يخبرك الذي جاءك البارحة في المنام وبشرك أني سوف أكون زوجتك، أن الموعد ليس هاهنا، وأنه ليس اليوم؟ فقلت لها فأين الموعد ومتى يكون؟ قالت سيكون قريباً وفي الجنة بعدما تطهر مما علق بك. قلتُ لها وما الذي علق بي؟ قالت الكثير من الدماء والحقوق. قلت: ذلك عند الله وهو الغفور الرحيم، لكن عجبت لتغير أحوالك فما أشد زهدك في لقائي اليوم وما أشد حرصك على لقائي قبل خروجي من الخرطوم؟ قالت: أنت كنت حينها طاهراً لم تتلوث، وكنت لي وحدي في ذلك الزمان، فالناس لم يكونوا يعرفون قدرك، لكنك الآن صرت لكثيرين غيري فتركتك لهم ولهن. وغداً تكون لي وحدي، وأنا اخترت الآخرة فالموعد الجنة. واعلم أني سأخلع حجابك هذا من عنقي فهو لن يغني عني من الله شيئاً، وأني لم أعد أزور قبر أمك، وأنه لا عقد بيني وبينك بعد إذ سفكت دم أمي وأبي فاذهب بسلام. ثم أقبلت على صلاتها فلم تلتفت حتى تركتها وذهبت آسفاً.

قالت عائشة: ما غرت من امرأة بمثل ما غرت من هذه المجنونة فالمنتظر الزاهد في النساء رغم كثرتهن يذهب ليبحث عن فتاة تركته وزهدت في لقائه بعد أن شغفها حباً حين كان في الخرطوم، وهي التي بقيت تناديه بيا حبيبي بعدما قتل أمها وأباها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

بنات الخرطوم

قال أبي:

- قلت لجدك كيف كانت الخرطوم في زمنكم؟

قال:

- مدينة عصرية بها مبان كثيرة. وكنا صبياناً نطوف في قيسارياتها (سوق الحرف والصناعات) ووكالاتها، وحول ديوان الحكمدارية والمجلس المحلي ومباني الشفخانة. وكان الاقتراب من مبنى الجبخانات أو التلغراف ممنوعاً، فكنا نلعب في الساحة التي بجوار مدرسة الخرطوم التي أنشأها الخديوي عباس.

قلت له:

- وهل درستم في المدارس في تلك الفترة؟

قال لي وقد زم شفتيه مشمئزاً:

- لا. لا. أعوذ بالله!

قلت له:

- لماذا يا أبي؟

فقال:

- المدارس في ذلك الزمان كانت مخصصة للنصارى وللرقيق! أنشأها هؤلاء البلجيك الملاعين بعدما أغلقت مدرسة الروم الكاثوليك أبوابها سنة خمس وأربعين وثمانمائة وألف. وقد جاء القنصل العام البلجيكي إلى الخرطوم سنة اثنين وأربعين ومعه القس لويجي مونتوري من الروم الكاثوليك، وزعم أنه جاء من الحبشة هارباً من الاضطهاد الديني الذي تعرض له هناك. والله وحده أعلم بسبب فراره المزعوم فلا يوجد اضطهاد ديني هناك في الحبشة ولم نسمع عنه أبداً. المهم أن الحكمدار أحمد باشا أبو ودان سمح له وللقنصل ببناء إرسالية، وهي عبارة عن كنيسة ومدرسة ومقبرة مسيحية في جنوب الخرطوم. وعلى الفور قام هذا القسيس مونتوري بتشييد المدرسة لتنصير الأطفال من البيض والسود والخلاسيين، وتعليمهم مبادئ المسيحية. ولا نعلم من أين جلب الأموال فقد جاء إلى بلادنا هارباً، ولم يكن يملك شيئاً. لكن سرعان ما انهالت عليه الإعانات والأموال من بعد ذلك من أوربا. بيد أن الأهالي انتبهوا لخطورة هذه المدرسة على أبنائهم، فقد كانت تقوم بتنصير أولاد المسلمين، ولذلك امتنعوا عن إرسال أبنائهم إليها واتجهوا إلى مصر ليدرس أولادهم في الأزهر والمدارس الأخرى. وفيما عدا الخلاوي، فقد بقيت مدرسة ذلك القس الكاثوليكي هي الوحيدة في الخرطوم، غير أنها اضطرت لإغلاق أبوابها سنة خمس وأربعين بعدما توقفت أوربا عن دعمها بالأموال حين توقف الآباء عن إرسال أبنائهم إليها، ودارت حولها بعض الشبهات بأنها تمارس تجارة الرقيق تحت ستار التعليم.

- الحمد لله أنها أغلقت!

- لكن النصارى لم يتوقفوا بالطبع، ففي عام ستة وأربعين أمر كبير النصارى في الفاتيكان بإنشاء النيابة الرسولية لإفريقيا الوسطى. وكلف الأب رويلو في عام ثمانية وأربعين بإقامة إرسالية في الخرطوم، وتم لهم ذلك بعون مالي كبير من التاجر التركي شريف حسن!

- معقول يا أبي؟ التجار الأتراك المسلمون يبنون للنصارى إرساليات في الخرطوم؟

- طبعاً! ولما سألوه قال هذا من باب رد الجميل لأن الإرسالية الرومانية الكاثوليكية آوته في لبنان أيام غزو محمد علي لبلاده وكان إذ ذاك طفلاً.

- هي نفسها الإرسالية الموجودة غرب الخرطوم؟

- نعم هي! وتلاميذها كان عددهم يصل أربعين طفلاً في الدفعة الواحدة، وجميعهم من الأطفال الزنوج، فالقساوسة كانوا يشترونهم من سوق الرقيق فيدخلونهم المدرسة ليتخرجوا قساوسة، بالإضافة لأطفال الأوروبيين بالمدينة. القساوسة لجأوا للشراء لأن المسلمين امتنعوا عن إرسال أبنائهم للمدرسة. وفي المدرسة يلقنون هؤلاء الرقيق مبادئ المسيحية واللغة العربية والإيطالية والحساب والغناء والرسم. والإرسالية تزرع الخضر والفاكهة في حديقة الكنيسة لتسد حاجة هؤلاء التلاميذ والمدرسين. وتطورت تلك المدرسة لتغدو أكاديمية مهنية تعلم الصغار المهن المختلفة. لكن تم إغلاقها عام أربعة وخمسين بعد اتهام الكنيسة بأن تلك المدرسة كانت مجرد غطاء لممارسة تجارة الرقيق. وبعدما أغلقت لم تنشأ في الخرطوم مدرسة أخرى حتى عام سبعة وستين وحينها افتتحت مدرسة أولية، يدرس فيها التلاميذ لثلاث سنوات، ثم يتلقون تعليماً مهنياً في مجال التلغراف أو الميكانيكا أو غيرها.

- معهم حق حين أغلقوها لكونها تمارس تجارة الرقيق.

- بصراحة لم تكن الكنيسة وحدها هي من يمارس تجارة الرقيق، فجميع القنصليات الأوروبية في الخرطوم كانت موضع شك واتهام حتى من قبل بعضها البعض بأن العاملين في تلك القنصليات هم تجار رقيق. ففي سنة إحدى وخمسين أنشأ النمساويون قنصلية في الخرطوم تعاقب على رئاستها عدد من الضباط والقساوسة النمساويين كان آخرهم مارتن هانسل، الذي بدأ عمله في القنصلية منذ عام اثنتين وستين وأحضر معه جهاز موسيقى بيانو يعزف عليه في الأمسيات! وأذكر أن هذا الرجل النمساوي قُتل من بعد ذلك على يد الأنصار عند دخولهم الخرطوم فقد كان تاجر رقيق، واستولى التعايشي على البيانو ونقله إلى بيته رغم أن المهدي منع المعازف والموسيقى. وكانت تحيط بدار الإرسالية النمساوية على شاطئ النهر حدائق زرعت فيها فواكه مثل الليمون والبرتقال والعنب والرمان والتين والقشطة والخوخ والتفاح إضافة إلى الخضروات. ودفن في فناء تلك الإرسالية القسيس رويلو والأسقف كمبوني صاحب المدرسة وآخرون.

كان الترك يقيمون في حي الحكمدارية الذي أسسه الحكمدار عبد اللطيف ليكون مجمعاً لمباني الإدارة التركية، ولمساكن القادة ولمعمل الورق الذي أسسه الحكمدار إسماعيل أيوب، ولمعمل صناعة

الجبخانة. أذكر أننا كنا نذهب لمشاهدة بناء البوابات التي أمر غردون بإنشائها لحماية الخرطوم من هجوم أنصار المهدي.

قال أبي قلت لجدك:

- أي بوابات يا أبي؟

فقال:

- بوابة المسلمية وبوابة الكلاكلة.

- معناها يا أبي أن الخرطوم لم تكن كبيرة فالبوابات والحصون تكون لحماية المدن الصغيرة.

- الخرطوم لم تكن كبيرة لكن كان فيها عدد من القنصليات التي أراد غردون حمايتها وكان فيها كثير من الأوروبيين المنتشرين حول حي الحكمدارية، حيث مركز الحكم، بينما انتشرت مساكن المسلمين حول حي المسجد، والأحياء الشعبية في أطراف المدينة التي يسكنها عامة الناس، ومنها حى سلامة الباشا المشهور بالدعارة، وحي هَبُوبْ ضَرَبَانِي، وحي الكارة، وحى التُّرَسْ، الذي أخذ اسمه من الحواجز الترابية التي أقيمت جنوبه لحماية المدينة من فيضان النيل الأبيض، وحي بُرِّي المَحَسْ.

- هل كان محمد احمد في بدايته يا جدي يعرف عنه أنه متنبيء أو مدعي المهدية؟

- في ظني أنه كان رجلاً ثائراً على الظلم أغضبته أفعال الأتراك لبني وطنه فانطلق يزور شيوخ الطرق ويدعو الحيران للخروج على حكم الأتراك لكن ادعاءه بأنه هو المهدي المنتظر لم يعرف إلا مع مجيء التعايشي الذي أخبره أن شيوخاً جاءوا من المغرب، ومن وَدَّايْ يبشرون بظهور المهدي المنتظر في هذه البلاد، فوجد محمد احمد أن الفكرة مناسبة لجمع الأهالي حوله فقد كان يعلم أن أهل هذه البلاد لن يجتمعوا إلا حول داعية قرآني رباني يدعو إلى الشريعة ويتسلح بسلاح الحقيقة.

- لكنه زعم أنه لقي النبي محمداً!

- ونبي الله الخضر الذي يحبه أهل هذه البلاد وينسبونه إليهم، وكل ذلك حتى يجمع الناس حوله لحرب الأتراك.

- بالكذب يا أبي؟

- أو بالتوهم! فكثير من المتصوفة حتى في زماننا هذا يؤمنون بالحضرة النبوية التي يشهدها النبي محمد عليه الصلاة والسلام، ومعه نبي الله الخضر والملائكة والأقطاب والأبدال وغيرهم. وحين يعقدون حلقات الذكر يتملكهم الجذب والوجد فيغيبون عن عالم الوجود، وعن الحضور والشهود، حتى إن أحدهم يسقط مغشياً عليه يصبون عليه الماء البارد فلا يفيق وأظن أن محمد احمد كان مجذوباً بالرغم من أنه كان عالماً.

- معروف أن الجذب لا يدوم فالمجذوب يفيق من جذبه ويعود إلى صوابه!

- إلا محمد احمد فقد كان دائم الجذب رغم أنه كان حافظا للقرآن دارسا لموطأ مالك وفقه الشافعي وأبي حنيفة لكنه رفضها جميعها وقرأ مؤلفات محيي الدين ابن عربي، والغزالي وغيرهما من مؤلفات المتصوفة وكان مطلعاً وقارئاً فلا أظنه كان يجهل شروط وصفات المهدي المنتظر، وأظنه كان مدركاً أيضاً في أول الأمر أنه ليس المهدي، لكنه قَبِلَ دعوى المهدوية لكونها توصله لغاية جمع الناس حوله لحرب الأتراك. ثم يبدو أنه أشربها في آخر الأمر وصدَّق أنه هو المهدي المنتظر.

سأحدثك عن بعض الغرائب يا ولدي فقبل ظهور دعوة المهدي كان الناس يتوقعون خروجه لما تفشى الظلم. ويحكى أن أولاد النوبة في كردفان لعبوا لعبة الحرب ضد أولاد الترك من موظفي الحكومة، وحمل كل فريق راية يعرف بها فهزم أولاد النوبة أولاد الترك؛ هزموهم من منطقة الفكي آدم البرقاوي حتى ود أبو صفية مرتين! بدلاً من مرة واحدة فتعجب المسؤولون وتوقعوا شراً. أولاد النوبة رفعوا راية المهدي وأولاد الترك رفعوا راية الحكومة.

قلت لأبي مقاطعاً:

- يقال إن البريطانيين درسوا المقاومة العربية والإسلامية للحكم التركي يا أبي ودرسوا تركيبة القبائل في المنطقة فجلبوا قبائل وعناصر من غرب إفريقيا وأدخلوها منطقة النيل وهكذا بدأت المهدية. فهل دعم البريطانيون فكرة المهدية ليخرجوا الأتراك وينفردوا هم بإعادة احتلال السودان؟

- يابني هل كانوا محتاجين لذلك؟ فقد كانوا حكاماً للسودان حتى في أيام الأتراك والدليل هو أن آخر الحكام كان غردون باشا.

- سمعت أنه كانت هناك مفاوضات بين المهدي وغردون، وأن غردون يوم دخل الأنصار القصر كان هادئاً ولم يتوقع أن يغتالوه بل سألهم أين محمد احمد؟

- لكنهم اغتالوه.

- قتلته مجموعة التعايشي!

- ما الذي تدرسونه عن المهدية في مدارسكم هذه الأيام يا ابني؟ فعليك أن تقنعني أن التعايشي كان يخالف تعليمات المهدي.

- أستطيع يا أبي!

ويضحك أبي من من أعماقه قائلاً:

- هل كنت معهم بالحضرة يا ولدي؟ أظنك لو شهدت ذلك الزمان لقلت للناس إنك أنت المهدي المنتظر!

كانت هذه بعض حواراتي ومشاكساتي مع أبي. كنا حين نخرج معاً نقطع الطريق بالحكايات. وكنت صبياً متطلعاً للمعرفة ولهذا فقد كنت كثيرا ًما أسأله، وقد عودني الإجابة. وفي ذلك اليوم لما سألته عن المهدي والمهدية وعن المنتظر وكنا قد درسنا سيرته ضمن مقررات التاريخ في المدرسة، قَصَّ

عليَّ حكاية عجيبة سمعها من والده فقد قص عليَّ مشاهدات عائشة على الحقيقة ثم رؤاها المنامية.
ورغم ما قصه أبي عليَّ من حكايات إلا أنه بقيت عندي أسئلة كثيرة حائرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



هَيْنمَة المُحْتضر

قال لي أبي قال جدك:

- أشعل حديث عائشة رغْبَةً وَقَّادَةً في نفسي لسماع المزيد من حكاياتها وأقاصيصها، فقد حدثتني بصدق وأفضت إليَّ بمكنونٍ كانت قد خبأته في السويداء، فهي لم تصدق أنها قد عثرت على من تبثه نجواها فتضع عن عاتقها حملاً تنوء منه الشامخاتُ الرَّوَاسِي. وأنا لم أصدق أني سأنفرد وحدي دون بقية الناس بهذه الأحاديث. قضيت تلك الليلة أتقلب في فراشي لا يغمض لي جفن، ولا يهدأ لي بال. أمضيتها ساهراً أسائل نفسي: إن كان هو المنتظر فلماذا مات قبل أن يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً؟

هرعت إليها باكراً في اليوم التالي متلهفاً لمعرفة الجواب. ولما أحست بخطواتي قادماً ابتسمتْ ولم تنظر ناحيتي فقد علمتْ أني حريص على معرفة المزيد من حكاياتها. كانت تغزلُ ثوباً فأبقت نفسها منهمكةً لكني حين قلت لها في ذلك الصباح:

- كيف توفي المنتظر يا أمي ولم يملأ الأرض عدلاً؟

تغيرت تعابير وجهها من البسمة إلى الصرامة ورأيت الجد في عينيها، فقد بوغتت بسؤالي هذا فلم تتوقعه ممن هو في مثل سني، لكن كان من الواضح أنه أعجبها واستحوذ على اهتمامها، فأسقطت مِتْرَارَ المغزل من يدها على حجرها وتركت خيط القطن المتدلي من البكرة منسدلاً بين قدميها، ونظرت في عيني قائلة:

- المنتظر كان يؤمن بكل شيء قاله، أنه سيقع على الحقيقة فقد كان يعلم أنه مهدي، لكنه حين عرف أنه منتقل لم يتردد في إخبار الناس باقتراب أجله. فقبل شهر ونيف من انتقاله كتب للخليفة يوصيه بالإسراع في تحرير سنار وبقية البقاع التي ما زالت في قبضة الأتراك والإنجليز. وقال له: »إن أيامي قد تقاصرت، واشتياقي إلى ربي قد اشتد والبلدان إلى الآن ما فُتحت«. وعندما كتب لأمير بيت المال يعزيه في وفاة قريبه قال: »إن شوقي للقاء الرحمن في كل آن، حتى نجد المقصود عند انقضاء الأحيان« وختم الخطاب بقوله »إن موت أعز الاحباب داع الى الوثوق بالوهاب والفرار من دار السراب. ولاشك أن انتقال الحبيب العُبَيْد شَوَّقَنَا إلى لقاء الله الحميد والسلام«. وبعدها ببضعة أيام خاطب أحمد ولد سليمان بالإسراع في تجهيز الجيش المتجه لتحرير سنار وذكر عدم تمكنه من الحضور لتوديع الجيش بنفسه لمرضه بآلام الظهر والكوفار. لكن في اليوم الأخير من شعبان عاد عودته الأخيرة إلى أُمْ دُرْمَان من الخرطوم التي زارها لتفقد أحوالها فأزعجه أن بعض القادة خالفوا أوامره وقتلوا بعض من نهاهم عن قتله، وأخذوا النساء رقيقاً، ومالوا عن التقشف والزهد، وأزعجه إيثارهم لحب الدنيا وسكناهم في قصور أعيان الخرطوم وباشواتها من المستعمرين. فخطب خطبة الجمعة الأخيرة في مسجدها وقَرَّع مسلكهم تقريعاً عنيفا. وذكر قوله تعالى: (وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ)، ثم عاد حزيناً منكسراً وقد ظهرت بوادر الإعياء على وجهه واشتكى لي.

- معناها أنه كان يحس باقتراب أجله يا أمي؟

- أليس هذا بالأمر الغريب والعجيب يا ولدي؟ ولكن دعني أكمل لك القصة، فقد خرج من عندي يوما ثم عاد إليَّ فرحاً مسروراً وبشرني قائلا: »إن أحد الإخوان قابله ملك الموت في الطريق وقال له إن ربك مشتاق للقائك ففرح واستبشر وطلب منه أن يقبضه حالاً لأنه مشتاق أيضا إلى لقاء الله. فأجابه ملك الموت بأن الله أمر بإمهالك حتى تصل إلى بيتك فتودع أهلك وأولادك وخلفاءك وأصحابك«. فبكيتُ وعرفت أنه يقصد بذلك نفسه. فقلت له: لمن تتركنا؟ فقال: »أتركـكم للحي الذي لا يموت، فلا ينبغي أن أكل أمركم إلا إليه«.

- كان يذكر الموت كثيراً إذاً!

- نعم. وقبل هذا وفي شهر رجب جاء بعض الأهل ليباركوا له ختان أولاده وخاطبه السيد محمد صالح ساتي علي بالتمني المعتاد فقال:

- «نسأل الله أن يبارك فيك ويطول عمرك حتي تحضر زواجهم وذراريهم، وأن يمتعنا جميعاً بوجودك».

فاغرورقت عيناه بالدمع وقال لهم:

- »مَنْ يَسْتَعِزُّ بِمَنْ يَمُوتُ فَعِزُّهُ أَنْ يَمُوت. فاتركونا نحن وأنتم نستمسك بالحي الذي لا يموت».

فانقبضتْ أنفُسُ الحاضرين تأثراً بقوله بعد أن كانوا فرحين. فبقوا أمامه أجمعهم صامتين إلى أن قرأ الفاتحة وأذن لهم بالانصراف.

وعند ثبوت هلال رمضان وبعد صلاة المغرب طلب من الناس العفو وذاكرهم في فناء الدنيا وخير الآخرة فقال:

- «إن هذا شهر رمضان وهو شهر عظيم نريد أن نقبل فيه على الله فلا تشغلونا فيه بأشغالٍ دنيوية، وقد عَيَّنَّا لكم خلفاء وقضاة ونواب وأمراء، فمن كان عنده قضية أو أمر فليرفعه لجهة اختصاصه، أما المظالم والحاجات التي تخص بيت المال فارفعوها إلى أمين بيت المال».

قلت لها مقاطعاً:

- وتوفي بعد ذلك فوراً؟

فقالت:

- لا لا. فدعني أقص عليك كيف توفي. كان أول ما اشتكى لي هو بعد ما تَسَحَّر لأول ليلةٍ من رمضان، في سحور جماعي اجتمع له القادة والأمراء. وحين جاءني حدثني أنه أكل قليلاً من طبق أرسلته أمينة بنت أبي السعود، ولما رأى الغيرة في وجهي والغضب في جوانحي لأنه لم يأكل من طبقي الذي صنعته له بيدي ندم أنه أخبرني، ثم لم يأكل شيئاً بعد ذلك وأصبح صائماً، ثم لم يأكل وقت الإفطارسوى ثلاث تمرات، ثم أصبح صائماً ثاني أيام رمضان لم يأكل شيئاً بعد التمرات، وقد اشتدت عليه الحمى، وأصابه الوهن وغسله العَرَق. ثم ظهرت القروح والحبوب الصفراء في ظهره، ومازالت الحمى تشتد حتى بلغت مداها عصر يوم الإثنين التاسع من رمضان، ولم يكن يأكل شيئاً ولا

يشرب سوى الحليب بالتمر، ثم ما يلبث أن يتقيأه ويصبح صائما فلا يفطر. وكان القادة والأئمة المشفقون ينقرون باب خلوته المفتوح نقرات حذرة خافتة لتنبيهي أنهم سيقتربون، وحين كنت آذن لهم يدخلون فيطالعونه ولا يقتربون كثيراً، وحين يرونه هادئاً كالنائم ومسجى على فراشه يطمئنون، وأحياناً يسمعون بعض مناجاته وتسبيحه فيسألونني سؤالهم المعتاد:

- كيف حال المنتظر اليوم؟

ولم أكن أرد عليهم إلا بالنظرات، فيكتفون بذلك وينتظرون خارج الغرفة أمام الباب. وأبقى جالسةً عند رأسه أرمقه بنظرات الإشفاق وأنصت لكل كلمة يقولها. وبين الفينة وأختها ألمس ذراعه أو أمسح وجهه بماء ليستفيق من غشيته كلما غاب عن الحضور وغاص في سكرات الاحتضار. لكنه سرعان ما يستفيق فلا ينقطع لسانه عن الكلام إلا للذكر والتسبيح والدعاء. ثم يعود للحديث وكأنه يسابق ملك الموت. وكنت أحفظ كل ما يقوله. كنت موقنة أنه يحتضر وأنها لحظاته الأخيرة. فصرفت السريات والخادمات جميعهن من حولنا وأخبرت بقية زوجاته أنه لا يقدر على الانتقال من بيتي نظراً للمرض فوافقن على بقائه عندي، وكنت أريد أن أنفرد بتلك اللحظات النادرة معه فلا يشهدها أحد منهن غيري، ولم أكن أرد على من يعودونه حين كانوا يسألونني عن حاله فكانوا يخرجون مطمئنين إلى أنه لو كان الأمر خطيراً لأخبرتهم. وما كان يخطر على بالهم أويطوف بخيالهم أنه سيموت أصلاً، فقد كانوا يظنونه خالداً، فرسالته التي بشرهم بها وأخبرهم بتفاصيلها لم تكتمل بعد، وكنت أعتمد على فهمهم هذا. وبقيت أسمعه يردد الشهادتين بين كل خاطرة وأختها، فأطمئن أنه مازال في هذه الحياة لم يفارقها. كان يخاطبني بقوله:

- هل دنت ساعتي يا عائشة؟ أم أنها آثار الحمى؟ فقد أرهقتني وأصابتني بالضعف والوهن، وكأن ناراً تَوَقَّدُ بين ضلوعي، وتغشى رأسي فيكاد يتفجر من الصداع. وهذا الطفح الوردي في ظهري وجنبيَّ يمنعني الرقاد والتقلب، وأصبحتُ لا أشتهي الطعام. ولم يترك المرض لي مفصلاً إلا اجتاحه وأشعلت الحمى أعضائي في حالتي الحركة والسكون، وأصبحت شديد التعرق أقول هذا وأنا راضٍ بالقضاء وصابرٌ على البلاء، ولا أتشكى. إلا أن المرض أقعدني عن صلاة الجماعة، وحبس لساني عن الذكر والمناجاة.

فأجبته:

- إذا صَحَّتِ المُنَاجَاةُ بالقلوب استراحت الجوارح!

سَكَتَ لحظةً يتأملُ هذه العبارة من حكمة ذي النون التي كان كثيراً ما يَعِظُنِي بها حين كنتُ أشتكي له من قسوة القلب والفتور عن الذكر أو التعب حال قيام الليل.

ثم قال لي:

- هذا الطبيبُ الذي جيء به ليفحَصَنِي أرادني أن أُفْطِرَ في نهار رمضان يا عائشة. وحين هززتُ رأسي ممتنعاً كلمني فما رددت عليه، فقد شغلني عنه ذكر الحبيب، ثم بقي واقفاً عند رأسي يظنني في النَّزْع. ولما أَجَبْتُهُ بعدما كرر الإشارة وأكثر من العبارة محاولاً تلقيني الشهادتين خاطبني فقال إنني كنت أهذي بكلام غير مفهوم!

- وماذا كنت تقول حين ظنك تهذي؟

تَنَهَّد تَنْهِيدَةً حَسِبْتُ أن روحه ستخرج معها ثم ردد بصوت متقطع وفيه حشرجة:

واللهِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلا غَرَبَتْ

إلا وَحُبُّكَ مَقْرُونٌ بِأَنْفَاسِي

وَلا جَلَسْتُ إِلَى قَوْمٍ أُحَدِّثُهُمْ

إلا وَأَنْتَ حَدِيثِي بَيْنَ جُلَّاسِي

فبادرتُ لإكمال أبيات الحلاج حتى لا يتعب من الكلام وكنت أعلم أنه يحبها ويرددها كثيراً:

وَلا ذَكَرْتُكَ مَحْزُوناً وَلَا فَرِحَاً

إلا وَأَنْتَ بِقَلْبِي بَيْنَ وَسْوَاسِي

وَلا هَمَمْتُ بِشُرْبِ المَاءِ مِنْ عَطَشٍ

إلا رَأَيْتُ خَيَالاً مِنْكَ فِي الكَاسِ

وَلَوْ قَدِرْتُ عَلى الإِتْيَانِ جِئْتُكُمُ

سَعْيَاً عَلَى الوَجْهِ أَوْ مَشْيَاً عَلَى الرَّاسِ

وَيَا فَتَى الحَيِّ إِنْ غَنَّيْتَ لِي طَرِباً

فَغَنِّ وَا أَسَفاً مِنْ قَلْبِكَ القَاسِي

مَا لِي وَلِلنَّاسِ كَمْ يَلْحُونَنِي سَفَهَاً

دِينِي لِنَفْسِي وَدِينُ النَّاسِ للنَّاسِ

بقي يستمع إلى الأبيات، لكنه رَدَّدَ معي البيت الأخير وصمت برهة، ثم عاود الحديث فقال لي:

- «وكيف أهذي ولي مَلَكٌ يُسَدِّدُنِي من حيث لا أراه! لكن إن دنت ساعتي فلست نادماً، وإن رأيت ملك الموت فهو حبيب جاء برحمة من الله على فقر مني وحاجة. وأنا أبرأ إلى الله من كل دم سُفِكَ بغير حَقٍّ، أو مالٍ أُخِذَ من غير حِلِّهِ أو خطيئةٍ ارتكبت باسمي، أو ظلم وقع بسببي أو بسبب أصحابي، فما لهذا خرجتُ وما لهذا دعوتُ ولا مثلَ هذا أردت. وفي كل حينٍ وآنٍ أستغفرُ الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه من جميع المعاصي كلها والذنوب والآثام، ومن كل ذنب أذْنَبْتُهُ عمداً وخطأً، ظاهراً وباطناً، قولاً وفعلا، في جميع حركاتي وسكناتي وخطراتي وأنفاسي كلها دائماً أبداً سرمداً، من الذنب الذي أعلم ومن الذنب الذي لا أعلم، عدد ما أحاط به العلم وأحصاه الكتاب وخطه القلم، وعدد ما أوجدته القدرة وخصصته الإرادة، ومداد كلمات الله كما ينبغي لجلال وجه ربنا، وجماله وكماله، وكما يحب ربنا ويرضى، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله».

اشتدت عليه الحمى تلك الليلة. زارته أول أيامها على استحياء، لكنها سرعان ما تسللت إلى عظامه. لم يشكُ منها أول أمره فلما أنهكته شغل نفسه عنها بالزفرات والتسبيح والاستغفار، ثم لما أنشبت أنيابها دخل غيبه في شهادته، واختلط حديثه معي بمناجاة من يراه ولا أراه. كان يشير بأصبعه تارة ويحرك يده كلها كَرَّةً أخرى ثم يبقيها على صدره وسبابته مفردة ممتدة. وفي أحيانٍ أخرى عندما يحاول النهوض فيعييه يعود ليستلقي على جنبه أو على ظهره، وقد غاب عن الشهود وغاص في أعماق غمرات الانتقال من هذا الوجود. عرفت ذلك حين بقيت أناديه ولا أسمع منه الردود.

فهمت من هينماته أنه يجادل عن نفسه، وكأنما يكلمه أحدهم فيتلطف معه تارة ويحتد مراتٍ كثيرة. ثم يعود فيكلمني، لكنه ما يلبث أن ينشغل عني، فأصبحت لا أفرق بين كلامه معي وجداله مع من يراه ولا أراه. سمعته يقول له أو يقول لهم:

- أنا جئت لأملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. من سلَّم لي وبايعني على الجهاد ضممته إلى أنصاري، ومن لم يتبعني حاربته وأذللته، مسلماً أو غير مسلم بلا تمييز. وإذا أنكر أحد عليَّ مهديتي قتلته، وإذا خالف لي أمراً قاصصته إما بالقتل أو بقطع اليد والرجل من خلاف. جئت لأنسخ المذاهب جميعها، وأتفرد بمذهب أوحِّدها فيه بتسوية ما بينها من الخلاف والاختلاف.

قلت له:

- نعم ولا ينكر هذا إلا ظالم لنفسه!

لكني أدركت أنه يكلم الآخر حين استمر يقول:

- مذهبي؟ هو الواسطة بيني وبين أنصاري والنبي المعصوم في تبليغ الأحكام. أفعالي؟ هي مثل أفعاله. نعم عليهم أن يتوضأوا كما رأوني أتوضأ ويصلوا كما رأوني أصلي، ويتبعوني في جميع العادات والعبادات من غير نظر للمذاهب.

قلت له:

- يا حبيبي هون على نفسك قليلاً.

لكنه لم يرد عليَّ واستمر في جداله يقول:

- أنصاري؟ نعم أمرتهم بإحراق كتب من يُطْلَقُ عليهم أهل السنة بل والتفسير ومعها جميع الكتب الدينية والعلمية، فلا يبقى في البلاد من الكتب إلا القرآن ومناشيري ورواتبي، ليقرأوا الراتب الذي اخترته لهم من القرآن الكريم والحديث الشريف. يحفظونه غيباً ويتلونه كل يوم مع تلاوة حزب من القرآن بعد صلاة الصبح وصلاة العصر.

- ...

- يا قوم. أنا علمتكم كيف تقومون الليل في رمضان. وسهلت لكم طرق الوضوء وعلمتكم الزهد في الدنيا، والجهاد للدار الآخرة.

قلت له:

- من تخاطب يا حبيبي؟ هل تكلمني أنا؟

قال:

- هؤلاء الجهال هم عُبَّادُ الأضرحة والقِباب والقبور! نعم نعم أكثرهم مشركون. كانوا يكثرون من زيارة قبب أوليائهم فمنعتهم. وأمرت بزربها زرباً قوياً حتى لا يصلوا إليها.

قلت له:

- نعم قد فعلتَ هذا وأنا أشهد.

قال وقد وضع يده على صدره كهيئة المستنكر:

- أنا منعتهم الحج وعطلت الفريضة؟ لا لا بل قلت لهم لا تذهبوا إلى الحج ولا إلى الحرمين فالجهاد أشد لزوماً من الحج والزيارة. لا لم أمنعهم من الحج خوفاً من مخالطة الآخرين ومعرفة بطلان دعوى المهدية. لا تقل مثل هذا.

قَلِقتُ عليه فقلتُ أنت تعاني من الحمى وتهذي، فهل أطلب لك الطبيب؟ ثم وضعت يدي على جبينه فلسعتني حرارته. لم يتعرق ولو فعلها لذهبت الحمى. استمر يقول:

- تقول إني أغلقت المساجد؟ لم أفعل هذا فقد كانوا يقصدون جوامع كثيرة يطلقون على كل واحد منها اسم المسجد الجامع، ورأيت أن الجامع في البلدة واحد وإلا فما المعنى من كونه جامعاً؟ نعم أمرتُ بهدم أكثرها ومنعتُ إقامة صلاة الجمعة إلا في المسجد الجامع، ومنعتُ إنشاء جوامع جديدة إلا بأمري، وشددت في المحافظة على الصلوات الخمس جماعةً ومن لا يشهدها عاقبته وجلدته. ألم يجمع النبي أصحابه في المسجد النبوي دون سواه؟

قلت له:

- بالله عليك يا منتظر!

بقي عاقداً حاجبيه ونظره إلى سقف الغرفة. ثم واصل كلامه وتجاهلني فقال:

- أبطلت الألقاب الرسمية وغير الرسمية والرتب التي أدخلها الأتراك وجاء بها النصارى والكفار. وساويت الغني بالفقير وفرضت على جميع الأنصار لباساً واحداً هو الجبة المرقعة التي ألزمت نفسي بلبسها قبل أن ألزمهم بها.

وضعتُ رأسي فوق صدره ليسكن قليلاً لكنه استفزني بكلامه فقال:

- نعم نعم. النساء هُنَّ أَشَدُّ ضَرراً وأكثر جهلاً. منعتهن من لبس الذهب والفضة وشعر العارية، وخروجهن مكشوفات الرؤوس وخروج الحديثات السن منهن بين الناس، ومن تخالف ذلك تعاقب بالجَلد. ولكني سمحت لهن بالتحلي في منازلهن بالسوميت والمرجان والصدف واللؤلؤ.

غضبتُ من كلامه فرفعتُ رأسي عن صدره وقلت له:

- وهل تظن أن هذا أمر حسن؟ النساء يجب ألا يعاقبن بالجلد. ما أكرمهن إلا كريم.

وكدت أقول وما أهانهن إلا لئيم لكني خشيت أن يفهم أني أتهمه باللؤم وهو المنتظر فكظمت غيظي. لكنه لم يأبه واستمر يقول:

- نعم حرَّمت الاحتفال بالأعراس احتفالاً يدعو إلى النفقة وأمرت بخفض مهر الزواج فجعلته عشرة ريالات وبدلتين أي ثوباً وقرباباً للبكر وخمسة ريالات وبدلتين للثيب، وعاقبت من خالف ذلك بمصادرة أمواله لبيت المال. فسهلتُ بذلك وسائل الزواج على الفقراء وقد كانت نفقات العرس الباهظة تحول بينهم وبين الاقتران فأقبلوا على الزواج، فالآن تشهد سبعين عقد زواج في الليلة الواحدة. وأبطلت الرقص والغناء وضرب الدلوكة وجازيت من خالف ذلك بجلده ومصادرة أمواله.

صَمَتُّ فلم أردَّ عليه. لكنه رفع صوته قائلاً:

- لا لا لا بالله عليك لا تقل مثل هذا فأنا منعت الرق وحرمت خصي العبيد، ومنعتُ البكاء وراء الميت، وأبطلت السحر والتعزيم وكتابة الحُجُب. وحرَّمت شرب الدخان ومضغه وشرب الحشيش والخمر وقضيتُ على من خالف أمري هذا بالجلد ثمانين سوطاً والحبس سبعة أيام مع مصادرة أمواله كلها. وجعلت عقاب من شتم بلفظ الكلب والخنزير سبعة وعشرين سوطاً والحبس سبعة أيام هو »حق الله«. وأعدتُ قصاص الرجم للزاني والزانية وقطع اليد للسارق بعد أن كان الأتراك قد أبطلوه.

قلت له:

- الكلام ينهكك يا منتظر. عليك أن ترتاح قليلاً. إهدأ بالله عليك.

- بل أنا هو المهدي المنتظر. النبي ﷺ أجلسني على كرسي المهدية وأمرني بجهاد الترك وقال لي إن الترك كافرون بل هم أشد الناس كفراً ونفاقاً لقوله تعالى: »يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم« وأنهم يسعون في إطفاء نور الله تعالى. أظهروا كتباً يسمونها كتب القانون مع شتم الإسلام وقهره. وأخبرني أن أرواح الترك اشتكت إلى الله وقالوا يا إلهنا وخالقنا إن الإمام المهدي قتلنا من غير إنذار فقلت أنذرتهم وخالفوني وصالوا عليَّ وسيد الوجود شاهد علينا. وقال لهم سيد الوجود ﷺ ذنبكم عليكم وأنكم خالفتم وصُلتم فَقُتِلْتُم. وإني عبد مأمور بإظهار الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما. وقد أخبرني سيد الوجود ﷺ أن كل من خالفني عُدَّ كافراً وان الله قد غفر ذنب من اتبعني وقواني.

أيقنتُ أنه الآن يهذي بالفعل جرَّاء الحمى، أو أنه يعي ما يقول لكنه يكلم من لا أراه، فكلامه متصل ومُرَتَّبٌ، وكان قد جهد من مواصلة الصوم مع عدم الأكل وعدم النوم أياماً متواليات، فاختلط حديثه معي بحديثه مع هذه الأرواح التي يكلمها. بقيت أسمعه يقول:

- العلماء؟ كلهم على ضلال إلا من اتبعني فالعالِم التابع لي في مهديتي هو كالنبي المرسل، والعاميُّ التابعُ لي كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني، والعالم المخالف لي كفرعون، والعامي المخالف لي كهامان. وإن الله قَوَّاني بالملائكة الكرام، وعزرائيل حامل لواء نصرتي، والخضر وسيد الوجود والأولياء من عهد أبينا آدم إلى هنا معي، ومؤمنو الجن كذلك معي.

كان كثيرا ما يقول لي يا عائشة أخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأني المهدي المنتظر وخلفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام وأيدني الله تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين، من لدن آدم إلى زماننا هذا، وكذلك المؤمنين من الجن وفي ساعة الحرب يحضر معهم أمام جيشي سيد الوجود ﷺ بذاته الكريمة، وكذلك الخلفاء الأربعة، والأقطاب والخضر عليه السلام، وأعطاني سيف النصر من حضرته ﷺ وأُعلمتُ أنه لا يُنصَرُ عليَّ معه أحد ولو كان أقوى الثقلين الإنس والجن. وأخبرني سيد الوجود ﷺ بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله، كررها ﷺ ثلاث مرات وجميع ما أخبرتك به يا عائشة أخبرني به سيد الوجود يقظة في حال الصحة خالياً من الموانع الشرعية، لا بنومٍ ولا جذبٍ ولا سُكْرٍ ولا جُنونٍ، بل متصفاً بصفات العقل.

كنت قد سمعته صباح هذا اليوم يقول لي وكيف أهذي ولي مَلَكٌ يُسَدِّدُنِي من حيث لا أراه. فعندما تذكرت كلامه هذا بدأت أشك أينا يهذي أنا أم المنتظر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



رؤيا عائشة

قالت عائشة بينما كنت أظنه يهذي إذا به يفيق لحيظات فيخاطبني، وقد فتح عينيه وبقي ينظر لي نظر السليم، فكانت آخر كلماته أن قال لي: »أخبريهم أن الخليفة عبد الله هو الخليفة الصادق، وقد عَيَّنَهُ النبي للخلافة بعدي، فهو مني وأنا منه، وكما أطعتموني وأنفذتم أوامري كذلك افعلوا معه، الله يرحمنا. لا إله إلا الله محمد رسول الله«. قال هذا ووضع يديه مشبوكتين على صدره ومد ساقيه. ثم سكت فلم يتكلم بعدها بشيء. وانتقل في عصر ذلك اليوم من شهر رمضان! وكان يوماً شديد الحرارة سهرتُ قبله ليالي متواصلة لم أذق للنوم طعماً ولا للراحة هناء منذ أن توعك واشتكى. ولم أقرب الطعام والشراب إلا لماماً لأتقوى على مراقبته والبقاء بجانبه وخدمته حين يحتاجني. وكان صائماً لم يأخذ برخصة الإفطار وهو مريض، بل كان يأخذ بالعزائم، وكلما ذَكَّرْتُهُ بالرُّخْصَةِ في ذلك كان يقول لي وأن تصوموا خير لكم فكنت أصوم معه بالنهار ثم لا أشتهي الطعام في الليل، ولا أقربه إذ لم يقربه. وكنت أواصل الصيام في اليوم التالي. واستمر هذا الحال ثلاثة أيام بلياليها منذ السادس من رمضان. وحين كان في الرمق كنت أعاني معه مثلما يعاني أو أشد، فرأيت ما بين النوم واليقظة كأني أُحْتَضَرُ أنا أيضاً. وانتقلتُ إلى حالٍ هي ما بين الموت والحياة، لكنِّي كُنتُ أقرب إلى الحياة مني إلى الموت، أما هو فكان أقرب للموت منه إلى الحياة. تَبِعْتُهُ بروحي قبل نظري وسمعي، فرأيتُ بالبصيرةِ أنَّا نَرْقَى في برزخ بين السماء والأرض وكأنه قد كُشف عنا الغطاء، ثم رأيتُ أنَّا نستفتح باباً في السماء. وبعد قليل انتظار فتح ذلك الباب، لكن لم أر حارساً ولا أحداً وراءه، بل سمعتُ حَفِيفَاً وَذَفِيفَاً وَخَفْقَاً وَصَفْقَاً وَفَدْفَدَةً، وأصواتَ أَجْنِحَةٍ تَرِفُّ فَوْقَنَا. ثُمَّ سَمِعْتُ لَغَطَاً مِنْ حولي حين دَخَل هُوَ أَوَّلاً فتأخرتُ عنه قليلاً، ثم دلفتُ بعده وإذا أصواتٌ من حولنا أسمعها بوضوح ولا أرى الشخوص، وكأن المتحدث يقف قرب أذني فأسمع صوته ولا أرى جوهره. لكني رأيت المنتظر هناك واقفاً في الهواء ممسكاً كتاباً ضخماً، وكأنه كتاب أعماله وإذا أصوات تختصم عليه. قَال أحدهم بصوت جميل:

- جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلا بِقَلْبِهِ فهو لنا ونحن نقبضه.

وَقَال آخر بصوت كالرعد يقصف القلوب قصفاً قبل أن يبلغ الآذان:

- بل هو لنا فلقد زعم أنه المهدي وأنه المنتظر، وتوهم أن ملكاً يسدده وأن النبي محمداً كلَّمه كِفاحاً بالرغم من تقادم الزمان وبعد المكان. وزعم أن الله أيده بالأنبياء والرسل والملائكة والصحابة، فأباح لنفسه الأنفس والدماء والأموال واستحل الفروج وحكم بكفر من لم يتبعه وإن كان من المسلمين.

قال صاحب الصوت الأول:

- كلا بل رأى فحكى وسمع فصدَّق وردد ما سمع، وسلك طريقاً استوحشه غيره وارتقى مرتقى صعباً فبقي في الجذب الدائم منذ دخله فما خرج منه. وافترى عليه من حوله. فهم المسؤولون، عما افتروه وما ذنبه هو إن أذنب غيره؟

قال صاحب الصوت الآخر:

- ولماذا لم ينكر عليهم حين علمه، فلو فعل لجنب قومه كل هذه الفتن!

- وهل عَلِمَه وهو في الجذب؟ وهل يعقل المجذوب؟ أولم ينكر عليهم حين رأى أفعالهم الدنيئة ومخالفاتهم القميئة؟

- رويدك وهوناً عليه فمازال في الجذب وعما قليل يكشف عنه الغطاء فيبصر. فالمجذوب يفيق ولو ساعة من نهار فيعي الحقيقة ويدركها.

وبينما هما يختصمان إذ سمعت صوتاً أعرفه ولا أذكر صاحبه فَجَعَلاهُ بَيْنَهُمَا حَكَماً. ثم سمعت صوتاً آخر ضعيفاًخافتاً يشبه صوت محمد احمد نفسه فظننت أنه صوت قرينه. قال ذلك الصوت:

- هاتوا أقوالكم واستمعوا إلى أقواله، ولا تحكموا بشيء قبل أن تسمعوا كل شيء. وأنت يا ابن فحل افتح كتابك واسرد أقوالك كلها ولا تبقِ منها ولاتذر شيئاً. واسردها مذ كنت شيئاً!

حاول محمد احمد أن يقرأ كتابه فلم يقدر أن يفتحه ولا أن ينظر إليه. فانقدح في عقلي حينها أنه ما يزال حياً، لكنه في سكرات الموت، إذ لو كان ميتاً لفتح كتابه وقرأه. فصارت روحي تبكي خوفاً عليه. وحينها سمعت الصوت يكلمني فيقول:

- أيتها الروح الطيبة المشفقة لا تبكي واشهدي معنا. فها هو ذا يتكلم! وعما قليل تعلمين وتعرفين وتحفظين فلا تنسين.

فطمأنني ذلك الصوت الذي أعرفه ولا أميز صاحبه والذي ظننته صوت محمد احمد فهدأت وكففت عن البكاء، ثم رأيته وقد نظر إلى الأعلى وكأنه يرى صاحب الصوت فأيقنت أنه آخر غيره. قال صاحب الصوت:

- احك سيرتك كلها ولا تذر منها شيئاً يا عبد الله.

قال:

- نعم سأحكي كل شيء وسأحدث بكل شيء ولا أكتم الله حديثاً. أنا محمد بن عبد الله بن فحل. أتباعي يسمون أنفسهم الأنصار ويسمونني المهدي والمنتظر، ومن خالفني وعاداني يسمي أنصاري الدراويش ويسميني المتمهدي. أخبرني إخوتي أني ولدت بجزيرة لَبَبْ في يوم الثلاثاء الثاني عشر من رجب عام تسعة وخمسين ومائتين وألف للهجرة الموافق للثامن من أغسطس عام ثلاثة وأربعين وثمانمائة وألف. قالوا لي إنه جيء بي إلى شمال البقعة حين كنت رضيعاً ابن تسعين يوماً. وكانت أختي آمنة نور الشام تحملني طول الطريق بالتبادل مع محمدٍ وحامدٍ شقيقيَّ، فأمي زينب بنت نصر الملقبة جارة لم تكن تقوى على حملي.

قاطعه الصوت قائلاً:

- وكافأت آمنة على ذلك بعدما كبرت بأن هجرتها فماتت حزناً عليك! ثم افتريت عليها البهتان حين زعمت أنها أمك ليتوافق ذلك مع القول في وصف المنتظر أن اسمه يوافق اسم النبي واسم أمه يوافق اسم أم النبي!

ارتسمت علامات الحزن على وجهه حين سمع هذا الاتهام فوجم برهة، لكنه تابع حديثه بعد ذلك وقد تغيرت نبرة صوته فبدا عليها التأثر:

- كانت لي مثل أمي بعد أمي. قالوا لي إنه في ذلك العام أصاب الجدب جميع البلاد، وانحسر البَحَرْ، وكسدت الصناعات، فهاجرنا إلى شمال البقعة ليواصل أبي وإخوتي مهنتهم الموروثة، فنحن أسرةٌ مشهورةٌ بصناعة السواقي والمراكب الشراعية والسفن الصغيرة. كانت الرحلة مضنية والوالدان أنهكهما السفر والمسغبة. ولم يحل علينا الحول حتى ماتت أمي قبل فطامي وتبعها أبي حسرة عليها. ونشأتُ وأنا لا أذكرُ والديَّ لكن آمنة كانت تقوم مقام الأم فكنت أناديها أمي ومحمد أخي يقوم مقام الأب فكنت أدعوه أبي، ولم أر فرقاً بينهما وبين أمي وأبي الحقيقيين. وقد سبقني جميع إخوتي بعد ذلك شهداء فاحتسبتهم عند الله. أخي حامد قُتل شهيداً في قَدِير، ومحمد وعبد الله قتلا شهيدين في الأُبَيِّض. هل يعقل أن أدعو إلى الباطل ثم أقدم إخوتي جميعهم فداء له؟

- أو هو التوهم والإدعاء!

- محمد وحامد كانا يعملان قبل ذلك بالنجارة وصناعة المراكب، وحين كنت صغيراً كنت أصحبهما إلى شاطيء النيل حيث يعملان، فألعب حولهما أو أجلس وأراقب وأتأمل. وفي يوم رأيتُ غِلماناً يتجهون إلى خلوة حفظ القرآن وفي أيديهم الألواح فتبعتهم رغبةً أن أكون معهم، لكنَّ أخي منعني وقال إن صناعة المراكب خيرٌ لي من قِلَّةِ العملِ والتبطل مع هؤلاء الصبية. فلم أقبل ذلك لكني كظمتُ غيظي وبقيت أعمل معه حتى تحينتُ غَفْلَةً منه فسِرتُ حتى بلغت حِلَّةَ هاشم بِكَرَرِي لأتعلم القرآن. وحين علم بمكاني جاء وأخرجني من الخلوة بعنفٍ وأعادني وحذرني من العودة إليها. وبرغم هذا فقد هربت مرة ثانية غير أنه تبعني وفي هذه المرة حين أعادني وضع القيد في قدمي ومنعني الخروج. ونظرت إلى حالي فرأيت أني مثل القِرْدِ يربطونه بحبلٍ أو سلسلةٍ لئلا يهرب من صاحبه.

أحزنني ما صنعه أخي، وتغير حالي فلازمت البكاء والحزن وبقيت جسداً بلا روح. وحين لاحظ ذلك رَقَّ قلبُهُ لي فعقد معي اتفاقاً أن أعود إلى صناعة المراكب فور الفراغ من حفظ القرآن الكريم. وهكذا كان فنِلْتُ ما رغبت فيه، إذ ذهبت فحفظت القرآن. لكني حين عدت لصناعة المراكب بقيت زاهداً فيها ولم أعتبرها تجارةً، فكنتُ أبيع المركب ثم أتصدق بثمنه. ما زلت أذكر غبطتي حين بِعْتُ أوَّلَ مركبٍ صغيرٍ صنعتُهُ بنفسي فتصدَّقْتُ بثمنه على أرملةٍ ثَكِلَت ابنها بعد ثُكل زوجها.

- وأقمتَ في الخرطوم رغم فسق أهلها وانحلالهم؟

- لا لا. فحين سمعت ذلك الهاتف صدَّقْتُهُ، فخرجتُ منها وتركتُها غيرَ آسفٍ عليها. الخرطوم كانت هي ديار الأغراب والأجانب من الترك والإنجليز والنمساويين والطليان والفرنسيين. أما أهلها الحقيقيون فلم يكن لهم فيها قدرٌ معروفٌ ولا نصيبٌ محفوظ. بل كانوا خدماً وعبيداً عند الكفار. الخرطوم لم تكن تصلح لرجل يريد الله والدار الآخرة. جَمَعَتْ الشَّرْكَسَ والأَرْمَنَ، والبيض والسمر، والسود والصفر، فالنساءُ سافراتٌ عارياتٌ، مائلات مميلات، لا يتورعن عن شرب الخمور وساقط القول، والفعل الرقيع، والرقص الخليع في كل مكان. لم أتركها إلى أن بلغ الحال فيها أن الرجل كان يؤجر فرج زوجته وابنته لمن يرغب. وتحولت قشلاقات الجنود مرتعاً لِلِّواط وللرذيلة وجميع الفواحش، وانتشرت النساء تحت أشجار الخرطوم الظليلة التي زرعها مُوحُو بِكْ يتعرضن للسابلة

ويتحرشن بهم. كنت أهرب من الطرقات فأراهن عند مدخل مسجد خورشيد باشا يتحرشن حتى بالمصلين، و كنت أجدهن في حي المسجد وحي الحكمدارية مركز الحُكْم ولا أحد يزجرهن، لكنهن كن يتجنبن الأحياء التي في أطراف المدينة فالأشراف لم يكونوا يسمحون لهن بالتواجد في حي بري الشريف ولا حي بُرِّي المَحَسْ بينما لم تسلم منهن أحياء سلامة الباشا وهَبُوبْ ضَرَبَانِى، وحي الكارة، وحى التَّرَسْ غرباً. هذا النوع من الحياة أفسد بنات الخرطوم بشتى أنواع الفسق والفجور حتى أصبحت الحياة فيها لا تطاق. كنت أسير في طرقاتها فأسمع أغاني البنات ودعوتهن السافرة للفجور، يغرين الشباب للزنا مع النساء ذوات الأزواج دون العازبات، كنت أسمعهن يغنين لهم فيقلن إنهن يرغبن فيهم ويردنهم بأي شكل وبأية طريقة:

كَدِي كَدِي نَدُورُوكْ مَا تَقْرَب العِزْبَــانْ

تَعَزِلْ فـــي التُّلُوبْ رَجَّــالَةَ النِّسْــوَانْ

تَطْلَـــعْ فُــوقْ قُلُوبِـــنْ وُتُوقِدْ النِّيرَانْ

ولهذا خرجتُ من هذه البلدة النجسة فكيف أبقى فيها وأنا الحافظ للقرآن وشيخ طريقة السمان؟ وكيف أرى المنكر ولا أغيره بيدي؟ كان إخوتي يمنعونني من مغادرتها بشتى الطرق. حاولوا معي كل حيلةٍ وأرادوا أن أبقى من أجل صناعة المراكب. لكن الخرطوم مدينةٌ فاجرةٌ. وويلٌ للمدينة الجائرة. قُضَاتُها ذئاب مساءٍ لا يبقون شيئاً حتى الصباح. استعلن فيها الفجور وذهب العفاف واستحل الزنا واللواط. يرى الرجل من زوجته القبيح فلا ينهاها ولا يردها عنه، ويأخذ ما تأتي به من كدّ فرجها، ومن مفسد خدرها، حتى لو نُكحت طولاً وعرضاً لم تهمه، ولا يسمع ما قيل فيها من الكلام الرديء، وتصانع المرأة زوجها على نكاح الرجال، ويبذل النساء أنفسهن لأهل الكفر، فيكثر أولاد الزنا وتتزوج الامرأة بالإمرأة وتزف كما تزف العروس إلى زوجها، وتكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء. شهدت ذلك في الخرطوم. وزال الحياء فلم يبق إلا أن يتسافد الناس كما تتسافد البهائم في الطرقات، ويؤجر الرجل زوجته وبنته. رأيت في الخرطوم شهادة الزور وقول الزور والبهتان ونقض العهود والغش، فيكذب التاجر في تجارته، والصائغ في صياغته، وكل صاحب صنعة في صناعته، وكثرت الخيانة وائتمن الخونة إلا المخلصون.

- لم يحدث كل ذلك في الخرطوم! صحيح أن بعضه وقع لكن كانت بها المساجد والأذان وذكر الله وكان فيها كثير من المسلمين!

- إن لم يحدث فيها كُلُّه فقد حدث جُلُّه، بل وفي غيرها من المدن. ألم تر ما صنعه الأتراك حين أفسدوها بالموبقات. ألم تر ما صنعه التجار الفجار؟ جعلوها دار بغاء للمومسات؟ ألم تر إلى انتشار اللواط في الطرقات؟ ألم تر ما صنعه فيها الخواجات وقد ملأوها بالبعثات والإرساليات؟

- وكيف خرجت منها؟

- غاضباً، بعدما حرض إخواني فاطمة امرأتي على النشوز والعصيان، وبعدما انتزعت المصحف من يدي وألقته على الأرض، طَلَّقْتُهَا وخرجتُ مهاجراً إلى الله ورسوله، فوجدتُ المراغم والسعة حين ضاقت الخرطوم بأهلها. وعلمت أن الهاتف الذي سمعته في ذلك اليوم كان حقاً، فخرجت من

الخرطوم غير آسفٍ عليها وعلى أهلها، وبقيت بالحلاوين مدةَ ثم جزيرة أبا. ثم سافرت إلى كردفان لأبشر الناس بقرب ظهور المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

- الذي هو أنت؟

- لا ورب الكعبة، لم يدر بخلدي إذ ذاك أني أنا هو ولا طمعت! رغم أني كنت ممن يبشر الناس به.

- ألم تقل أنك سمعت الهاتف يذكر مهدي الله؟ وسرعان ما توهمت أنك هو؟

- بلى سمعته يذكره لكني لم أتوهم أني هو، وقد سمعت كثيرين يزعم كل واحد منهم أنه سمع مثل هذه الهواتف وأنه سيكون هو المهدي، ففهمتُ أن قوله يامهدي الله تعني يامن هداه الله للحق، وليس يا مهدي الله المنتظر، وعلمت أن كل من أنكر الظلم وسعى للعدل هو مهدي الله. ففي زمان الترك حين انتشر البلاء وعم الظلم واشتد الكرب هرب الناس إلى العزلة والخلوة وتحدثت العامة والخاصة بقرب ظهور المنتظر، فما قابلت ذا رأي عاقل، أو صاحب صوت طائل، أوذكر واصل، أو زاهد خامل، إلا وهو يبشر الناس بقرب ظهور المهدي، أو يدعي أنه هو. المهدية كانت في قلب كل مظلوم، وكان يكفي أن يقول أحد الصادقين أنا هو المهدي فيتبعه الناس ويصدقونه. والناس بقوا زماناً يتشوفون لرؤية المهدي، وينتظرون المصلح الذي يقود الناس، فالمهدية كانت قائمة أصلاً وكان زمانها قد أتى. والناس ظلوا يطوفون المدن والقرى والبوادي يبحثون عن المنتظر ويبشرون به، والشيوخ يحرضون تلاميذهم ليتبعوه إذا رأوه ويسلكوا دربه وطريقته. ولو لم أكن أنا هو لكان غيري. لم أنس كلمات شيخي محمد شريف وهو يحدثني عن وجوب اتباع المهدي المنتظر وقت ظهوره، ثم يحرضني من بعد ذلك على دعوى المهدية ويحسنها في عيني ويثني عليَّ خيراً.

- فانقدح في فهمك وعزمك أنك هو المهدي!

- بلى مثلما انقدح في أفهام كثيرين مثلي، ولكني دافعت هذه الخاطرة ودفعتُها كلما حدثتني بها نفسي، وعزمتُ على دعوة الناس للإصلاح والثورة على الأتراك الظلمة الذين استعبدوا الناس فباعوهم رقيقاً، وجعلوهم يتمنون الموت على أن يقبلوا بالظلم. ألم تسمع بالمقولة عشرة رجال في تُرْبَة ولا ريال في طُلْبَة؟ مما صنعه الأتراك من فظاعات من أجل جمع الضرائب؟ ثم لما أجمع الناس على أني هو المهدي قبلتُ ذلك على مضضٍ، ثم مضت الأحداث فوجدت نفسي أصدق هذه الدعوى وقبلتها وأشربتها في روحي فحين عرضتُ صفات المهدي على حالي تبين لي انطباقها على صفاتي، فقبلت التكليف بالرغم مني وأصبحت أدعو الناس للمهدية وأجمع كلمة المسلمين لجهاد الظالمين، ورأيت أنه إن لم يأت من الخير من هذه الدعوة إلا دفع الظلم وطرد الترك لكفى، فكيف وقد أجمع الناس على قبولها؟

- بل عارضك العلماء فنقضوا فتواك وكذبوا دعواك، وحكموا ببطلان ما جئتَ به، وسوف نسمع منك عن هذا أيضاً، ولكن قل لنا ماذا صنعت بعدما صدقت ادعاءك؟

- الذين عارضوني ليسوا بعلماء، بل هم موظفون لدى الترك. وكيف تستعين حكومة الأتراك بأزهريين يسمونهم علماء السنة لمجادلة أهل هذه البلاد وهم أهل تصوف، بينما الأتراك أنفسهم أهل

تصوف وليسوا أهل سنة؟ أرأيت كيف أن هؤلاء الذين دَفع بهم لمجادلتنا هم آكلو موائد السلطان؟ فهل كنت تتوقع منهم غير ما أفتوا به؟

- سنأتي لهذا لاحقاً، ولكن قل لي ماذا فعلت بعدما أوهمت نفسك بأنك المنتظر؟

- رأيتُ أن الخرطوم لا تصلحُ لي فقد انتشر فيها الفساد وتنكب حكامُها طريق الفضيلة ومارسوا تجارة الرّق، فكان نتيجته أن انتشر اللواط عن طريق هؤلاء الرقيق. وأصبح أكثر رواجاً من البغاء، فكنت ترى جماعة اللواطيين والمخنّثين في الأسواق والميادين وهم في ملابس النّساء، والكحل في عيونهم والخضاب في أكفّهم، يقودهم رئيس منهم عاري اللحية، يصوّبون نظراتِهم السّافلة هنا وهناك بحثاً عن صيد. وقد اتخذوا رئيساً شابًّا قويًّا في العشرين من عمره، وهو من أسرة يعتبرونها من أحسن العائلات، ينتشرون في الطرقات، يُرسلون شعورهم ويتشبّهون بالنّساء، واتخذوا لأنفسهم دوراً قائمة على دعارة الذّكور بجانب قِوادتهم لدعارة الإناث. وكان هذا هو أكثر ما دعاني للخروج من هذه البلدة خشية أن يصيبها ويصيبني معها ما أصاب قوم لوط إذا رضيت بالبقاء، فخرجتُ منها وسرتُ حتى الأبيض عام ثمانين فنزلت ضيفاً على أحد الشيوخ الدناقلة. وكان رجلاً كريماً مضيافاً ينزل في بيته المسكين وعابرُ السبيل، ويجتمع عنده الشباب للطعام والأنس. واتفق أن كان فيهم بعض العابثين الذين لاحظوا أني رجل دين وشيخ طريقة، لم يشاركهم مزحهم ولا حواراتهم، فراحوا يتسامرون بطريقةٍ وقحةٍ، فيتحدثون عن نكاح الغلمان، ويقلدون أصوات النكح بألسنتهم وشفاههم، ولاحظوا أن وجهي قد تغير وأعصابي توترت، لكني لم أزجرهم احتراماً لصاحب الضيافة، فهو أولى بذلك مني، ولا يليق بالضيف أن يزجر أبناء المضيف، ولذا فقد سكتُّ على مضضٍ، وأغضيتُ لا عن رضىً ولكن عن أدب، رغم أنهم جاوزوا حد الأدب. ولمحتُهُم يتهامسون ويغمز بعضهم بعضاً، ثم خرجوا من عندي ونسيت ذلك الحدث وانشغلت بأذكاري وأورادي.

وبعد يومين سمعت ضوضاء وأصوات طبول وموسيقى، ودَلُّوكَة في المنزل المجاور لمحل إقامتي، وبالطبع تساءلتُ عما يحدث، فأخبرني بعض هؤلاء الشباب أن فُلاناً النَّخَّاس يريد أن يتزوجَ بِغُلامٍ اسْمُهُ قِرْفَة. فلم أصدِّق حتى دعوتُ اثنين من الشباب الذين كانوا قد أظهروا لي أنهم يحبونني ويتبعون نهجي وتعاليمي. وذهبنا إلى محل البدعة فوجدنا المدعوين والموائد ممدودة والموسيقى تصدح والدلوكة تعزف. ولما رآني الشباب الذين كانوا معنا في ذلك اليوم وذلك الحوار السخيف تهامسوا وضحكوا. وسرعان ما جيء بشخصٍ يلبس عمامةً وطيلساناً كالعلماء أو المأذونين فأجرى صيغة العقد، وكنتُ أنظر غير مصدقٍ ما يحدثُ أمامي، لكني فوجئت بالنخاس يدخل بالغلام إلى غرفةٍ ويُغلقان الباب ليختلي به. فسللتُ سيفي وهممت بضرب عنق النَّخَّاس وكل من أقابله من أولئك الفسقة الضالين، لكن صاحبيَّ أمسكاني بقوةٍ ومنعاني من تأديبهم. ولما قاومتهما جَرْجَرَاني وتَرْتَرَاني ثم حملاني حملاً إلى منزل مُضيفي الدُنقلاوي. وحين هدأت ثائرتي قليلاً دعوت أولئك الأتباع لنذهب معاً إلى محل الحكومة نشكو أمر هذه المنكرات، وندعو للقضاء على الموبقات. لكن مأمور الظبطية أهاننا وازدرانا وطردنا من الظبطية وقال لنا:

- يعملوا زي ما هم عاوزين. الدنيا حرية!

وحين خرجتَ من عنده أخبرني أحد رجال الظبطية أن الأمر لا يعدو كونه مزحة، وأن مأمور الظبطية كان متآمراً مع أولئك الأولاد في أمر نكاح الغلمان، وأنهم لما رأوني قاموا بذلك الصنيع متعمدين إغاظتي، وأيضاً كان من أجل الضحك والسخرية وتمضية الوقت! لكن تلاميذي أخبروني أن هؤلاء بقوا يصنعون هذا مع كثيرين قبلي من أجل إشاعة الفاحشة في المدينة، وأنني كنت هدفاً سهلاً لأولئك العابثين الساخرين. وقالوا لي إن هذا لم يكن تمثيلاً بل إن نكاح الغلمان كان يحدث على الحقيقة وليس ادعاء أو تشبيهاً، وصدقتهم فقد رأيته قبل ذلك شائعاً في الخرطوم، وهو عين ما أخرجني منها، ثم رأيته بعد ذلك في الأُبَيِّض فعلمت أن البلاء قد عم، وانتشر وطم. وويل لمن يعمل عمل قوم لوط.

- وهل سعيت لتغيير هذا المنكر لدى ولاة الأمر حينها؟

- نعم فالشيخ عبد الصمد من أعيان قبيلة البديرية البقارة في كردفان نصحني بأن أرفع هذا الأمر لمأمور مدينة الأبيض مُرَاد رُسْتُم باشا شركس فاشتكيت له وفقاً لنصيحة صديقي وطالبته بتغيير هذا المنكر باعتباره ولي الأمر في تلك المدينة، لكنه هو أيضاً زجرني وقال لي: لا تتدخل فيما لا يعنيك ودعهم يفعلوا ما يريدون! فخرجتُ من عنده غاضباً محنقاً وأقسمت للشيخ عبد الصمد أن الله سيذهب ملك الترك لفسادهم واستكبارهم.

فحين خرجت من الظبطية كنت موقناً بفساد وكفر رجال الحكومة. قال الناس بعدها إنه انطلت عليَّ الألعوبة لكني خرجت غاضباً وعدت إلى الجزيرة أبا فدخلت الغار أربعين يوماً ولم أتكلم مع أحد من الناس.

- وماذا فعلت في الغار؟

- استغفرت الله عزوجل بالعشي والبكور، وسبحته حتى غبت عن الحضور، ورأيت النور يضيء الديجور، وجاءني الهاتف يحدثني بكلام الشيخ الأكبر، فامتلأ به جوفي، وجاشت به نفسي، وأيقن به فؤادي، وكأنه كان يصف حالنا ومآلنا. قال لي ذلك الهاتف: اعلم أَيَّدَكَ الله أنك أنت هو المهدي الذي يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً فتملؤها قسطاً وعدلاً، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد طوَّل الله ذلك اليوم حتى تلي على الناس خليفةً فأنت من عترة رسول الله من ولد فاطمة، واسمك يواطيء اسم رسول الله. سوف تخرج على فترةٍ من الدين، يزع الله بك ما لا يزع بالقرآن. أنت أنت المهدي الذي يقفو أثر رسول الله ولا يخطيء. لك مَلَكٌ يُسَدِّدُك من حيث لا تراه، سوف تحملُ الكَلَّ وتقوي الضعيف في الحق، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق تفعل ما تقول وتقول ما تعلم وتعلم ما تشهد.

فانتبهت وقد أصابني الرُّعبُ من هول ما سمعتُ وتصبب جسدي عرقاً وكأن حائطاً سقط فوقي من ثقل الكلام الذي سمعته، لكن الهاتف عاد مرة أخرى في اليوم التالي يحدثني فقال لي: لا تخف ولا تحزن فعما قريب ستبيد الظلم وأهله وتقيم الدين، وتنفخ الروح في المسلمين، وتعز الإسلام بعد ذله وتحييه بعد موته. وفي مرة ثالثة جاءني فقال: السلام عليك يا مهدي الله سوف تظهر من الدين ماهو الدين عليه في نفسه، ما لو كان رسول الله لحكم به. يفرح بك عامة المسلمين أكثر من خواصهم، ويبايعك العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهودٍ وكشفٍ بتعريفٍ إلهي. ولما كثرت الهواتف تقول

لي إنك المهدي المنتظر انقدح في مخيلتي أنه أنا على الحقيقة، واجتمعت عندي القناعة بأني أنا هو يقيناً، فقد وجدتُ أن اسمي يوافق اسم النبي ويوافق اسم المنتظر، وكذا اسم أمي، وأنا من عترته وأهل بيته فنسبي ينتهي إلى فاطمة بنت رسول الله، فنحن من سلالة الأشراف فأيقنت أن أوان خروجي قد حان، وأني سأخرج في هذه البلاد بعد أن لم أكن أظن أني هو، رغم أني قرأت في كتب الأولين عن صفات المنتظر فوجدتها توافق اسمي وصفتي.

- أين قرأت ذلك في كتب الأولين؟

- الذي في مزامير داود: «اَللَّهُمَّ، أَعْطِ أَحْكَامَكَ لِلْمَلِكِ، وَبِرَّكَ لابْنِ الْمَلِكِ. »

قال الصوت مقاطعا:

- قف ولا تكمل لأنك لست ملكاً، ولا أنت ابن ملكٍ، فأنت نجار ابن نجار يصنع المراكب!

- المسيح كان نجاراً ابن نجار!

- لكنك لست المسيح ولن تكون مثله. فالمسيح نبي مرسل وليس له أب! وأنت ابن عبد الله بن فحل.

- ألم يكفله يوسف النجار ويطلق اليهود عليه اسم ابن النجار؟

- المسيح لم يكن مجرد مهدي منتظر لتكون أنت مثله. فهو نبي ورسول، وهو روح من الله وأنت بشر خطاء، والمسيح لم يرتكب الخطايا ولم يقرب النساء وأنت اتخذت منهن مائة أو تزيد.

لكني قرأت في المزامير عن المهدي أنه:«يَدِينُ شَعْبَكَ بِالْعَدْلِ، وَمَسَاكِينَكَ بِالْحَقِّ. تَحْمِلُ الْجِبَالُ سَلاَمًا لِلشَّعْبِ، وَالآكَامُ بِالْبِرِّ. يَقْضِي لِمَسَاكِينِ الشَّعْبِ. يُخَلِّصُ بَنِي الْبَائِسِينَ، وَيَسْحَقُ الظَّالِمَ. يَخْشَوْنَكَ مَا دَامَتِ الشَّمْسُ، وَقُدَّامَ الْقَمَرِ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. يَنْزِلُ مِثْلَ الْمَطَرِ عَلَى الْجُزَازِ، وَمِثْلَ الْغُيُوثِ الذَّارِفَةِ عَلَى الأَرْضِ. يُشْرِقُ فِي أَيَّامِهِ الصِّدِّيقُ، وَكَثْرَةُ السَّلاَمِ إِلَى أَنْ يَضْمَحِلَّ الْقَمَرُ. وَيَمْلِكُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ، وَمِنَ النَّهْرِ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ. أَمَامَهُ تَجْثُو أَهْلُ الْبَرِّيَّةِ، وَأَعْدَاؤُهُ يَلْحَسُونَ التُّرَابَ».

- لكنك لم تملك من البحر إلى البحر!

- بل ملكتُ من النهر إلى أقاصي الأرض.

- أكمل ما ورد في المزامير.

- مُلُوكُ تَرْشِيشَ وَالْجَزَائِرِ يُرْسِلُونَ تَقْدِمَةً.

- ولهذا عرضتَ منصب الخليفة الثالث على شيخ السنوسية في ليبيا؟

- نعم لكنه رفضه ولم أعين أحداً مكانه فظل منصبه شاغراً!

- شيخ السنوسية لم يكن يعتقد أنك المنتظر يامسكين، وإلا لما تردد في قبول الخلافة. ألا ترى أنه لم يكلف نفسه عناء الرد عليك؟ ألم يكن ذلك كافياً ليعلمك أنك لست المنتظر ولا قريباً منه؟

- لعل شيخ السنوسية لم يفتح عليه بما فتح به عليَّ فأهل البصيرة كلهم أجمعوا على أني أنا هو ومُلوك شَبَا وَسَبَإٍ يُقَدِّمُونَ هَدِيَّةً للمنتظر.

- هل قدموها لك؟

- وَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ الْمُلُوكِ.

- هل سجدوا لك؟

- المهدي يوافق اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يكون في آخر الزمان وهو الخلف الحجة صاحب الزمان.

- وهل انطلى عليك كل هذا؟ أولم يكن لك في ابن تومرت عظة وعبرة حيث زعم أنه المنتظر قبلك؟ ألم تفهم أنه كان مصلحاً وليس المنتظر؟ ألم تفهم أن التعايشي قد قدم من المغرب مشرباً بمهدية ابن تومرت فأوهمك أنك أنت المنتظر ليكون هو الخليفة بعدما يئس أن يكون هو المنتظر؟ ألم تر أنه قال لكثيرين غيرك إن كل واحد منهم هو المنتظر فلم يصدقوه وكاد الزبير باشا أن يفتك به؟

- وإن لم أكن أنا هو المنتظر ألم أكن مصلحاً يملأ الدنيا عدلاً؟ أولا يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجدد لها دينها؟ أولا يكفي أني كنت مصلحاً؟

- وهل المصلح سفاك دماء مستحل فروج النساء وأن من لم يتبعه فهو كافر بالله ثلاثاً؟

- وهؤلاء الترك الذين غزوا بلادنا ألم يتخذوا اليهود والنصارى أولياء؟ وتبعهم كثير من الناس؟ ألم يقل الله عزوجل في حقهم:»يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين»، أليس معلوماً أن من يناصر الظلمة فهو منهم؟ أليس مكتوباً أن المنتظر يغيب غيبتين غيبةً قصيرةً وأخرى طويلة بسبب ظلم الحكام وتضييقهم ومحاولتهم قتله وقلة ناصريه؟ ألم يكن مكتوباً أن الإمام لا يدعو إلى نفسه وأنه عَلَمٌ منصوب من الله يأتيه الناس ولا يأتي الناس؟ أولم يحدث كل ذلك لي؟ أوليس من أسباب مجيئه تولي أُمراء فَجَرَة جَوَرَة، ووزراء ظَلَمَة فَسَقَة وعُرَفَاءَ وأُمَنَاء خَوَنَة؟ يكثرون من ارتكاب الموبقات ويأكلون الرشا وعند ذلك تكون دولة الأشرار ويحل الظلم في جميع الأمصار، وتُطلبُ الرياسة للتفاخر والمظالم، ويرعى القومَ سفهاؤهم وتصنع الرؤساء رؤوساً لمن لا يستحقونها، ويقَرِّبُ السلطان أهل الكفر ويذل المؤمن للكافر، ويتولى أمور الناس قادة إن تكلموا قتلوهم وإن سكتوا استباحوهم، ليستأثروا بفيئهم وليطأوا حرمتهم، وقضاة يقضون بخلاف ما أمر الله.

- وهل كانت هذه علامات تبشر الناس بك مهدياً منتظراً كما تزعم؟ أم بمصلح عادل يجدد الدين؟

قال صاحب الصوت الذي لا أعرفه:

- لا تقاطعوه واسمعوا منه!

فساد الصمت وبقيت حيناً لا أسمع إلا صوت المنتظر الذي أخذ يحدثهم بكلام كثير من بعد ذلك، فعقلت منه ما عقلت، ونسيت ما نسيت. ثم قال كلاماً لم أفهم معانيه ولم أدرك مراميه ولم أعرف هل

كان ذلك من هذيان الحمى التي كنت أعاني منها أنا أيضا مثلما كان يعاني، أم أنها من شطحات المنتظر التي لم أفهمها. لكني بقيت على هذا الحال مدة من الزمن ثم سمعت لغطاً كثيراً وأصواتاً ترتفع وتنخفض وحركة من حولي. ثم ساد الظلام فلم أر شيئاً ولم أسمع تلك الأصوات. ثم رأيت نوراً يبرق ووجوهاً تشرق. ورأيت محمد احمد قد فتح كتابه وبدأ يقرأ منه، وكان صوته يتلاشى وصورته تخبو. ثم أفقت من غشيتي على الماء البارد يصبونه على رأسي وينضحون به وجهي. وأخبروني أن المرض قد أضعفني وأنهكني وأنه قد أودى بحياة المنتظر وأني أصبحت أرملة. وجدت نفسي في غرفتي قاعدة متلففة بثوبي في إحدى الزوايا وكانت الغرفة مليئة بالأمراء والقادة حتى لم يبق فيها موضع لقدم، ولم تكن فيها امرأة غيري، فخرجت أخبر سائر النساء بانتقال المنتظر وأعزيهن، وأمنعهن من النوح والندب لكن الأصوات ارتفعت بالبكاء. فعدت إلى غرفتي لأجد التعايشي قد نصب نفسه خليفة يأمر وينهى. والمنتظر جسد مسجى بعد في كفنه، والحشود حول غرفتي بلا عدد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



في شوارع الخرطوم

يا ولدي قال لي جدك إن المهدي شخصية محيرة. حدثته عنه السيدة عائشة التي رغم أنها تعرف الكثير من أسراره إلا أنها هي نفسها بقيت محتارةً في شخصه، فهو يحمل كماً هائلاً من الثورة في داخله، منذ نشأته يتيماً وطفولته المتمردة على كل شيء حوله. فقد تمرد على أخيه الأكبر ثم على شيوخه وزوجته فاطمة، وعلى الترك والحكومة والعالم أجمع من حوله. قالت لي لقد تمرد المهدي حتى على المذاهب الفقهية التي أجمع الناس على قبولها. لم يكن يقيم على حال. قالت إنه أقام في الخرطوم قبل ذهابه للجزيرة أبا. وإخوانه يعملون في المراكب فوجد نفسه مرغماً على مرافقتهم لكنه لم يحب تلك الصنعة. أخذ يذرع الشوارع والأحياء ليرى بعينيه ما يدور في هذه البلدة. جاب طرقاتها وطاف أزقتها وتاه في حواريها وكأنه يبحث عن شيء ضائع لا يعرف كنهه ولا يستبين مكانه. نشأ مستقيماً ومتديناً، والخرطوم لا تصلح لرجل مثله. فكلها انحلال وفسوق. رأى ذلك بعينه فعرفه وأدركه جيداً. صمم على الخروج منها. لكنه حين غادرها تبعه إخوته ليعيدوه إليها فهرب منهم إلى جهة مجهولة حتى لا يهتدوا لمكانه. علم بعد ذلك أن أخته آمنة قتلها الحزن عليه والغم لفراقه بعدما ذهب وتركها! فقد كانت تحبه.

ذهب إلى محمود الشنقيطي ليتعلم منه الفقه والشرع، لكنه سرعان ما اختلف معه فتركه وذهب إلى ودالضكير. ولما رأى أنه لا يستقر على حال قال له: ماذا تريد أن تصنع وأنت وحدك؟ قال له محمد احمد: أريد أن أُغَيِّرَ العالم فأدهشه هذا الجنون.

كان حائراً ومتنازعاً. خرج من الخرطوم غاضباً لما رآه فيها من منكرات لكنها بقيت مرسومة في ذاكرته مهما توجه وأينما ذهب. كان قبل خروجه منها مشغولاً بها وبتفاصيلها: بالسراي ذي الطابقين على شاطيء النهر، وبواجهته الحجرية المبنية على الطراز الإيطالي، والجناحين الخلفيين من طابق واحد، والفناء الفاصل بينهما. بحيطان السراي ذات الألوان الفاتحة، وستائره الخضراء، ونوافذه الزجاجية. وبممرات انتظار الزوار، والسُلَّمين المؤديين إلى الطابق الأعلى. وبالسلم الحجري في الجانب الشرقي، وذاك الآخر الخشبي في الجانب الغربي. وثالث يؤدي إلى السطح والمباني الملحقة به. طالما وقف عند المدخل الرئيس ذي الأقواس في الجناح الغربي، المواجه لمبنى المديرية، لا يفصله عنها سوى سور خشبي وشارع ضيق به ميدان مفتوح صغير. يذكر أنه كان يجلس في هذا الشارع ينظر صوب الميدان.

وكان العبيد والخدم الذين يعملون في القصر قد عرفوه فصادقوه. عرف منهم أن الطابق الأرضي مخصص لاستخدام الموظفين والكتبة، وأن غردون حين جاء اتخذ الطابق الأعلى مكاتب للعمل وغرفة نوم له، وللضابطين باور وسيتورات ولآخرين أيضا. معنى ذلك أن محمد احمد كان معنياً بمعرفة القصر منذ أن كان في الخرطوم وحتى مجيء غردون آخر الأمر. ترى ما الذي كان يدور في ذهنه وهو يتعرف على تفاصيل هذا القصر؟ حين كان يسأل الخدم ظنوه في أول الأمر درويشاً يتجول بلا هدف ولا غاية، أو أن مباني القصر سلبت لبه فظنها قطعةً من الجنة في هذه الدنيا. لكنهم رأوا أنه مختلف عن بقية الدراويش فصادقوه، ثم أخبروه بكل شيء بعد ذلك. لعلهم رأوا فيه رجلاً مباركاً فبقوا

يجيبون عن أسئلته كلما مر وسألهم. كانوا يسخرون منه ومن أسئلته في بداية الأمر، ويضحكون حين يسألهم لكنهم أخذوا الأمر مأخذ الجد حين رأوا أنه يهتم بالتفاصيل فتحولت السخرية احتراماً.

أخبروه أن هذا القصر وبقية المباني الحكومية شيدها خورشيد بك في القديم فهو الذي أصدر أوامره إلى الشيخ عبد السلام زعيم المغاربة في حلة كوكو للشروع في الحفر في بقايا آثار وخرائب مدينة سوبا القديمة المطمورة تحت التراب ونقل ما يتم العثور عليه من حجارة ومواد بناء على أن يقوم بنقل تلك الحجارة بالمراكب مع تيار النيل الأزرق إلى الخرطوم. وبالفعل استدعى الشيخ عبد السلام أهله المغاربة وعبيدهم الذين قاموا بالمهمة المطلوبة، وبغير ذلك لم يكن ممكناً ولا متيسراً قيام هذه المباني في الخرطوم، ومنها هذا القصر الذي يعملون فيه. وأخبروه أن أجنحة القصر مخصصة للحراس وضباط الشرطة الأتراك الكافاس، وللمخازن والخدم والطباخين والمراحيض.

في أحد الأيام قال له موظفو القصر:

- أنت رجل مبارك فادع لنا.

قال لهم:

- الله يهديكم للإسلام!

قال أحدهم متعجباً:

- نحن مسلمون مهتدون يا شيخ ادع لنا دعوة أخرى!

قال محمد احمد:

- أنتم عبيد الكفار تعينونهم وتعملون عندهم. فأنتم مثلهم لأنكم تتولونهم.

قال أحدهم:

- يا شيخ هذا رزقنا.

قال محمد احمد:

- اتركوه، والتمسوه في غير هذا المكان. الرزق في السماء وليس عند غوردون.

بهتوا فبقوا متعجبين لا يستطيعون الرد عليه، فمضى وتركهم.

كان يعلم أن هؤلاء الخدم هم ملاك الأرض الحقيقيون لكنهم يعملون عبيداً عند السيد الأجنبي الذي يسكن القصر. والقصر الذي يزعم السيد التركي أنه قد شيده إنما سرق مواده من خرائب الحضارات القديمة في سوبا، فهو حين يدعي أنه أنشأ الخرطوم فهو كذاب أشر. كان يعلم أن القصر والمديرية ذات المباني القديمة ودار حاكم الخرطوم والمباني الحكومية الأخرى كلها قد شيدت من حجارة سوبا وآجُرِّهَا القديم. كان يأتي فيمكث في ذلك الشارع الضيق الذي يفصل بينها وبين سراي الحاكم، فيبدأ من النهر ويقود إلى داخل الخرطوم. وأحياناً يأتي فيجلس مواجهاً لمدخل المديرية الرئيس جهة النهر، أو أمام مبناها ناحية المدينة حيث الميدان بأشجاره الظليلة ومدخله المقوس الذي قام عليه برج

المديرية صرحا ضخما مصنوعا من الطوب. يتأمل كل هذا الزيف ويعجب كم خدعنا هذا التركي الدخيل ببعض مبانٍ، ثم سرقنا واستعبدنا، وأهاننا وأكل خيراتنا. لقد حول البلد كلها إلى عبيد وخدم. نصف سكان الخرطوم هم من العبيد. بل إن هذا الخواجة الكولونيل ستيورات الذي يسكن القصر قد قَدَّرَ عددهم بثلثي سكان المدينة. كل أجنبي في هذه البلاد يملك في الخرطوم رقيقاً واحداً على الأقل. لا ترى بيتاً إلا وعلى عتبته جارية زنجية باركة تطحن الذرة وتصنع الطعام للسيد الأجنبي. العبيد من شتي الأجناس، ومن جميع أنحاء البلاد، ومن وسط إفريقيا والحبشة. الحكومة هي أكبر مالك للعبيد، وجنود الحكومة يؤجرون عبيدهم الذكور للعمل في المزارع خارج المدينة لإدارة وتشغيل السواقي. وعبيد الحكومة هم جنودها الذين حصلت عليهم عبر الغزوات منذ عهد محمد علي، ومن الذين صادرتهم من تجار الرقيق، لكنها لم تحررهم بل أبقتهم عندها يعملون لها بلا مقابل. فمن يصلح منهم للخدمة العسكرية تضمه الحكومة في الجيش، وغير الصالح تشغله في معاملها وفي الزراعة أو في مصانع الخمور. وبعضهم يعمل تراجمة لفرز العبيد الجدد وتِصنيفهم وجمع بياناتهم. ومن لايصلح من العبيد في كل هذه الأعمال، يعمل في كنس الشوارع وَرَشهَا، ويخدم في بيوت كبار الموظفين. تجار الحكومة هم من يجلب هؤلاء العبيد فيبيع ويشتري. وتجارة السُّرِّيَات على أشدها، فالتسري هو أحد أسباب رواج هذه التجارة وامتلاك الجواري. الترك والأوروبيون يتخذون الحبشيات سريات، بينما البقية يفضلون الزنجيات. وحتى الذين يتم تحريرهم أو تحريرهن يعملون ويعملن بالأجر في المنازل، أو جواري في بيوت الدعارة، ولا يتم تحريرهن إلا مقابل مبلغ معين تؤجر الواحدة فرجها لتسدد ما عليها شهرياً بأقساط. والعبيد المفصولون من الجيش بعد استنفاد لياقتهم العسكرية، يعملون حراساً لرحلات الجنوب التجارية، ولجلب المزيد من العبيد لتجار النخاسة الذين يبيعونهم ويشترونهم في الأسواق. يقيمون المزادات العلنية والدلالات بواسطة دلالين أو عن طريق التعاقد الشخصي. وعبر سماسرة العبيد. مازال يذكر ذلك الحوار الذي دار بينه وبين أحد السماسرة، فقد سأله يوماً:

- كيف يتم شراء العبيد عندكم هنا في الخرطوم؟

فرح السمسار فقد ظنه جاء من البعيد ليشتري عدداً منهم فقال له:

- عند شراء العبد يسمح للمشتري قبل إتمام الصفقة بإيوائه في داره لمدة ثلاثة أيام.

- ذكراً كان أم أنثى؟

- ذكراً كان أم أنثي. وذلك بعد دفع ربع القيمة، ليتأكد المشتري من خلو العبد من مرض الزهري، أو لو كان به مس من الجان، أو قد ألف التبول بالليل، أو الشخير عند النوم. فهذه العيوب تقلل قيمة العبد. فإذا خلا من هذه العيوب تتم الصفقة. وإلا أعيد للبائع ويسترد العربون.

- والجواري؟

- لو كانت الجارية بكراً وعاشرها المشتري أثناء مدة الاختبار - وهو ما كان يحدث أحياناً - فلا يمكن ردها بل يصبح الاحتفاظ بها أمراً لامناص منه.

- أخبرني عن الأسعار!

- يختلف ثمن العبد باختلاف السن والصحة والجمال ومن أين جيء به. وما يزيد من قيمته ألا يكون مصاباً بالجدري. فالذكر النشط القوي مرغوب أكثر من غيره. أما الإناث فالشباب والجمال. والإناث أغلي من الذكور. وثمن الأطفال الذكور أقل من ثمن المراهقين إلا لو أمضوا مدة في البلد وتعلموا العربية والخدمة بالمنازل فتزداد قيمتهم، لكونه تقل احتمالات هروبهم.

- ولماذا ثمن الخصيان هو الأعلى؟

- نعم أغلي الذكور على الإطلاق هو الذكر الخصي المخصص لخدمة السيدات التركيات، وبذا فإن أعداد الخصيان قليلة في الخرطوم نظراً لقلة السيدات التركيات. ولأن وجود الخصيان نادر فأسعارهم مرتفعة. وأغلي الجواري جميعاً هن البنات الحبشيات. والسن عامل مهم في تقدير قيمة العبد ذكراً أم أنثى.

- وكيف ذلك؟

- يقسم الأهالي البنات إلى طبقات، فالبنت التي يقل عمرها عن أحد عشر عاماً يطلق عليها خماسية، أما من أحد عشر إلى خمسة عشر فيطلق عليها سداسية وهن أغلي الجواري. ثم اللائي تتراوح أعمارهن بين العشرين والخامسة والعشرين فيطلق على الواحدة منهن بالغ ومن أعمارهن بين الخامسة والعشرين إلى الثلاثين يطلق عليها عجوز.

- وكم ثمن العبد؟

- الذكر الزنجي من سبعين إلى مائة قرش، والغلام العادي من مائة وخمسين إلى ثلاثمائة قرش، والغلام المراهق سليم البنية من أربعمائة إلى خمسمائة بينما الولد الحبشي من ستمائة إلى ألف.

- وأسعار الإناث؟

- المرأة الزنجية من مائة إلى مائتين قرشاً والفتاة المراهقة من مائتين إلى أربعمائة والفتاة الحبشية من ستمائة إلى ألف وخمسمائة.

- عليكم من الله ما تستحقون.

دهش السمسار وحملق فيه بعينين لم تتوقعا هذا الرد، فقد بقي يرد على جميع أسئلته وكان يظن أنه يرغب في الشراء، ولم يتوقع أنه درويش مخبول، أو فضولي جاء به الطريق. لكن محمد احمد تركه ومضى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أحيانٍ كثيرةٍ كان يجلس جهة النهر مقابل صالة الاستقبال الواسعة الأنيقة التي تعتبر الديوان الرسمي لحاكم الخرطوم، وتزين جدرانها صور للبحرية. وفي فنائها أشجار اللبخ التي يستظل بظلها العمال والموظفون العاملون في المديرية حين يشتد الهجير وتلفحهم سموم الصيف بأتونها المستعر. في حين يجلس السيد في الغرف جيدة الهواء يتمتع بطيبات هذه البلاد. كان محمد احمد قد اعتاد أن يقضي حاجته في حفرة بالقرب من النهر ثم يذهب فيغتسل في النهر ولا يستخدم حمامات المديرية ولا مراحيضها فهو يعافها ويتقزز منها، فهي مساكن الذين ظلموا أنفسهم. وحين يعود من مغتسله

يطيل النظر لإسطبل سلاح الفرسان والمدفعية، يمتع ناظريه بالخيول التي يحبها ويعجبه صهيلها. لكن الحراس كانوا في أول أمره ينتهرونه ويطردونه حين يطيل الجلوس عند مدخل المديرية جهة النهر، لأنهم كانوا يظنونه لصاً يتربص بالخيل، أو درويشاً متجولاً فيتوجسون منه خيفة. وكانوا يخشون أن يراه مدير المديرية جالساً هناك فتقع العقوبة عليهم بسببه. لكنهم اعتادوا عليه بعدما تكرر مجيئه فتركوه، ثم إن مدير المديرية مرَّ يوماً ورآه ولم يأمرهم بطرده ولم يوقع عليهم أي عقوبة، فقد كان مشغولاً بجين شوفر تلك الفتاة الأوروبية السائحة التي جاءت برفقته. لم يتوقف عن النظر إليها فشغله ذلك عن كل ما حوله ومن حوله.

إنه يذكر ذلك الشارع الضيق بالقرب من المديرية الذي قامت في جانبيه عشرات البيوت غير المطلية وغير المبيضة والمصنوعة من طوب رمادي قميء المنظر. ثم بستان النخل، وفي أحد أركان الشارع عند ضفة النهر مبنى القنصلية النمساوية. يذكرها بتفاصيلها فقد اعتاد المشي بجانبها عشرات المرات، وعَبَرَ ساحتها الواسعة، ومبناها ذا الطابقين. وعلى بابها تلك الأصنام، وتمثال نسر برأسين على درع بيضاوي الشكل. ثم يتجاوزها فيمر بمبنى التلغراف، ثم مكتب البريد. ثم المحلات التجارية، ذات المظلات على الشارع، والتي يجلس تحتها التجار وأصحابهم في الأمسيات للسمر والتدخين وشرب العَرَقِ أو المَسْتِكَا الخمور اليونانية. ثم يسلك الطريق المؤدي إلى داخل المدينة وإلى منطقة الارسالية التبشيرية.

قال جدك:

- كنت أسأل ميمونة المجنونة عنه فقد كانت تتبعه كثيراً فقلت لها أين كان يذهب فقالت لي:

- لقد انتبهت لمحمد احمد منذ صغري. وكنت أتبعه أينما ذهب وراقبته كما لم يفعل أحد من الناس. كان يطوف حِلَّة موسى بيه أقدم مناطق الخرطوم فأتبعه بدءاً من جنوب القنصلية النمساوية والقنصلية البريطانية. أنت تعلم أنها سميت بذلك الاسم نسبة للحكمدار موسى باشا حمدي أول من بنى بيتاً في تلك المنطقة.

قلت لها:

- أعلم. أكملي!

قالت:

- وكان يذهب أيضاً إلى جامع خورشيد بجوار سوق الدكاكين. نحن نطلق عليه هذا الاسم لنفرق بينه وبين سوق الشمس الواقع جنوب الثكنة القديمة والخالي من المباني حيث يبيع التجار فيه تحت الرواكيب المقامة من أغصان الأشجار المغطاة بحصير أوراق الدوم والنخيل.

قلت لها:

- لا أريد أن أعرف الأسواق ومواد بنائها. أريد أن أعرف عن محمد احمد!

قالت:

- سأخبرك عن الأسواق أولا وبطريقتي أو لن أخبرك عن محمد احمد. موافق؟

وخفت ألا تخبرني فقلت لها:

- حسناً كما تشائين.

قالت:

- في ظل تلك الرواكيب كان الجند يبادلون منتجات مصر بما يأخذون من الأهالي من طعام ومصنوعات جلدية. وكنت أتوقف لأنظر إليهم قبل أن أتبع محمد احمد فأنا أحب المصنوعات الجلدية، ولكنها لم تكن أحب إلي من محمد احمد. كنت أتوقف قليلاً عندها قبل أن أركض وراءه. هل تصدق أنه كان يذهب إلى الحي القبطي الذي يقع غرب الإرسالية النمساوية، فيقصد المقبرة التي في فناء الكنيسة المخبوءة في وسط منازل الحي ليتعظ بالأموات حتى وإن كانوا من غير المسلمين؟

قلت لها:

- ربما أعجبه جمال الحي القبطي الذي يتميز برونق خاص دون غيره من الأحياء المحيطة. أنا نفسي كنت أذهب للعب هناك في أحيان كثيرة ورأيت محمد احمد يأتي إلى ذلك المكان. رأيته أكثر من مرة. كان يأتي فيقف قليلاً لينظر إلى المقابر ثم إلى الحي وكأنه يقارن بين الأحياء والأموات قبل أن يتجاوزه إلى حي الثكنة (الباراك) فيعبر الثكنات العسكرية والمباني الحكومية إلى منطقة الأسواق ويقف أحياناً أمام مدرسة رفعت بيه التي كانت ثكنة عسكرية في أول أمرها.

قلت لها وقد ضقت بها ذرعاً:

- أعرف كل هذا ولكن حباً بالله أخبريني عن محمد احمد.

قالت وكأنها لم تسمع ما قلته لها:

- كان يقف هناك لحظة قبل أن يواصل السير وكأنه ينظر إلى مآلات الأموات قبل أن يدخل الحي العسكري، مقر سكن ضباط وجنود الجيش وعائلاتهم، الذي يسميه الأتراك حي (أوردو) أي حي الجيش، شرقي المدينة، خلف القصر وخلف المستشفى العسكري الواقع على ضفاف النهر.

- ما هو أكثر مكان كان يرتاده؟

- حلة المراكبية الواقعة غرب القصر وقريبة من مقابر قباب الحكام الترك حيث السوق الصغير. وسكان تلك الحلة هم من البحارة وبعض الجنود السابقين من الزنوج والذين كانوا يعملون في البواخر التجارية التي تبحر في نهر النيل والنيلين الأبيض والأزرق. لكن من المدهشات أني رأيته يذهب إلى جميع المقابر حتى مقابر الترك، فقد رأيته هناك جنوب سراي الحاكم يترحم على الأموات، مع أن تلك المقابر تضم رفات زوجة ماري بيه الجندي الفرنسي إضافة إلى رفات أحمد باشا أبو ودان، ورستم باشا جركس، وموسى باشا حمدي، المدفون في القبة الغربية الكبيرة، ومقابر كبار الضباط.

قلت لها:

- محمد احمد جمع المتناقضات في مسألة الترحم على الأموات، فلم يكن يهمه من هو المتوفى أو ربما كان يقرأ على المسلمين ويلعن الكفار في سره. من يدري؟

قالت:

- لا. أنت لا تفهم، فقد كان يفعل كل ذلك وهو في طريقة إلى قبر أمه المدفونة بالمقبرة القديمة التي تضم مقابر مسيحية، بل وقبوراً وثنية قديمة، وكلها اجتمعت في نفس المكان. فكان يزور جميع المقابر في طريقه ويترحم على أهلها حتى يصل إلى قبر أمه فيترحم عليها.

- ولكن لماذا يترحم على الأموات من غير المسلمين؟

قالت لي:

- أنا سألته فقال لي إنه يترحم عليهم حتى لا يُعَذَّبُوا في قبورهم فيصرخون، ويؤذي صراخهم أمه ويقض مضجعها ويقلق سكونها وهي في ذلك القبر. قال لي إنه كان يسمع صراخهم في قبورهم لكنه لما دعا لهم بالرحمة انقطعت تلك الأصوات وارتاحت أمه. فبقي يفعل هذا كل يوم. وأنا أيضاً كنت أسمع صراخهم وبقيت أدعو حتى ينقطع ذلك الصوت عن أذني فلا أسمعه فقد بقي يؤذيني.

قال أبي قلت لجدك:

- أين هي تلك المقبرة اليوم يا أبي؟

فقال:

- بعضها بالقرب من قبر الشيخ وَرَّاق وميدان أبي جنزير! لكنها في جملتها مقبرة عظيمة تمتد عبر أحياء كاملة في الخرطوم.

- وهل كان يطوف جميع تلك الأحياء؟

- ليس تماماً فقد كان يتجنب الذهاب إلى حي سلامة الباشا الواقع جنوب حلة موسى بيه ومناطق السوق. فهو حي قذر سيء السمعة، تعيش فيه طبقات مختلفة من الأهالي.

- ما الذي جعله سيء السمعة؟

- كان مشهوراً ببيوت الدعارة والأنادي حيث يصنع ويباع العَرَقِ والمريسة وحتى الخمور اليونانية. ويذهب الجنود والضباط والأتراك هناك لقضاء مآربهم وشهواتهم. كان في أول أمره حين يذهب هناك يرى هؤلاء الأتراك المخمورين يتحرشون بالنساء في الطرقات، وبعضهن من بنات الهوى لا يتحرجن من رفع جلابيبهن وكشف عوراتهن لهؤلاء الجنود يستثرن غرائزهم لابتزاز ما معهم من أموال فكانوا يندفعون نحوهن مثل اندفاع التيوس للنزو، بل ويتقاتلون عليهن.

سكت جدك لحظات وكأنه يتذكر شيئاً ثم قال:

- قالت ميمونة إنه كان يتجنب حي التُّرَس أيضاً أو الشاطئ الذي كان جسراً من الرمل يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام، شيد في جنوب غرب الخرطوم لحمايتها من فيضانات النيل الأبيض ويمتد إلى الجنوب

الشرقي من الكنيسة القبطية، حيث الأكواخ الطينية الصغيرة بائسة البناء. وأغلب سكانه من المشردين والغجر والحدادين وقارئات الكف والعاهرات. لكنه كان يرتاد حلة الفُكَيَا التي تعج بشيوخ الدين من المحس والدناقلة، بينما الغالبية العظمى هم من أعراق مختلفة ومختلطة من كردفان ودارفور. وبعضهم يشتغلون بتعليم الصبية القرآن في الخلاوي، بينما بعضهم الآخر من الباعة المتجولين والمعالجين الشعبيين وكُتَّاب المحايات والتمائم. ومحمد احمد نفسه كان يكتب المحايات ويعمل التمائم رغم أنه حين جاء بعد ذلك منعها وعاقب من يضبط متلبساً بجريمة كتابة التمائم والحجبات.

- هل كانت الخرطوم مدينة متسخة في أيامكم؟

- لا والله يا ولدي. كانت مدينة نظيفة خضراء كثيرة الظلال كثيفة الأشجار فيها سبل الراحة والبهجة لكن أخلاقها هي التي كانت قذرة حالكة السواد ومنغمسة في الرذيلة. وفي الوقت نفسه كنت ترى البؤس والإحباط خارج أسوارها. كانت الخرطوم تجمع جبايات القرى والأرياف لتنفقها على الترف والخنا والقصف. وكثير من الناس اعتزلوا الزراعة والرعي وهربوا من ظلم المدن وجور الأتراك إلى اعتزال الدنيا والزهد فيها، وساد التصوف جميع الأرجاء. فالناس أخذوا يطلقون الإرهاصات بقرب مجيء المخلص المنتظر. وكثيرون قالوا إنهم مهديون! ومحمد احمد كانت له أذنان يسمع بهما وعينان يبصر بِهِما، فقد رأى وسمع ما يكفي أن يمقت الخرطوم وأهلها، ويخرج مهاجراً في سبيل الله يبحث عن المُخَلِّصِ المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

- ماهو أكثر شيء دعا المهدي للخروج من الخرطوم؟

- انتشار اللواط بين سكانها وخاصة من الأوروبيين فقد أتى معظمهم من النمسا وإيطاليا وفرنسا ومعظمهم يعمل في الإرسالية. وهنالك يونانيون وألمان، وعدد من رعايا بريطانيا من مالطا وأيونية والهند ولاتفيا. ومعظم هؤلاء هم من التجار ومن العاملين في القنصليات أو القساوسة والبنائين والمهندسين. وقلة يعملون موظفين أو أطباء في الحكومة مثل الفرنسي الفريد بيني والإيطالي ليوبولدو أوري والإنجليزي ديفيد لو، لدرجة أن الفرنسي ليجين كتب ساخطاً على من عاصرهم في الخرطوم من الأوروبيين فكان يرى الابتذال والانحطاط في سلوك معظم من قابلهم منهم في الخرطوم، ويعزو ذلك لعدم وجود نساء أوروبيات بالمدينة. فقد كان هنالك عدد كبير من الذين بقوا في الخرطوم لسنوات ومارسوا الرذيلة مع الصبيان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الطريقة الموصلة للطريق

ولعلّني رُغْمَ احتياجيَ أنْطَوي

وَأَلُوذُ بالصَّلَوَاتِ وَالخَلْوَاتِ

النَّــاسُ تَهْجُــرُنِي لِعَيْــبِ وَاحِــدٍ

وَ اللهُ يَقْبَلُنِــي عَلَى عِـلاّتــي!

الحسين بن منصور

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لي أبي قال جدك:

- كانت عائشة تحفظ كلام المهدي كله وكأنها تقرأ من كتاب. فذاكرتها عجيبة مع أنها لم تعش معه طويلاً فقد تزوجها بعد وفاة شقيقتها. سألتها عن أدب محمد احمد وعلمه فقالت:

- في أحيان كثيرة كنت أظنه ملاكاً نزل من السماء حين يكون شفيقاً عطوفاً ممتلئاً حناناً وعاطفة ورحمة. وفي أحيان أخرى كنت أخاف منه فأجلس في ركن قصي أراقبه وهو يكلم نفسه أو يكلم آخرين لا أراهم. وربما هو الجذب الذي يغشاه آناء الليل أو أطراف النهار. أو أسمعه يتحدث بصوتٍ عالٍ فيقرأ ما حفظه من كتاب الفتوحات، حتى إنني أنا عائشة حفظت منه بعض عبارات مثل قوله: »لَوْ عَلِمْتَهُ لَمْ يَكُنْ هُوَ وَلَوْ جَهِلَكَ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ فَبِعِلْمِهِ أَوْجَدَكَ وَبِعَجْزِكَ عَبَدْتَهُ فَهُوَ هُوَ لِهُوَ لَا لَكَ وَأَنْتَ أَنْتَ لأَنتَ وَلَهُ. الدَّائِرَةُ مُطْلَقَةٌ مُرْتَبِطَةٌ بِالنُّقْطَةِ والنُّقْطَةُ مُطْلَقَةٌ لَيْسَتْ مُرْتَبِطَةً بِالدَّائِرَةِ. نُقْطَةُ الدَّائِرَةِ مُرْتَبِطَةٌ بِالدَّائِرَةِ«. ياولدي سمعته يقول من أشرقت بداياته أشرقت نهاياته. أخبرني أنه في أول أمره أصابت فتوحات الشيخ الأكبر من قلبه مقتلاً، وأدارت رأسه أياماً عديدة، فجعلته يُقَلِّبُ وجهَهُ في سماء الغار، ويدير طَرْفَه في قِبْلَةِ تَقَلُّبِ الأقدار، يغوص في المرامي ويسبح في المعاني. لكنه أيقن أن ذلك لن يكون إلا حين يلتحق المقيد بالمطلق فتنفتح له نافذة من الفيوض الإلهية. ورغم علمه أنها بعيدة المنال على من هو مثله من العباد والزهاد، الذين يسيرون في الطريق بلا راحلة ولا زاد، إلا أنه لم يتخل عن طلبها ورجائها، والنظر في أنحائها، والتطواف حول أرجائها، فقد سلبت لُبَّهُ خواطرُ الحاتمي فعكف عليها، وأعجبته مؤلفات الغزالي فاتخذها الأم التي يأوي إليها، لا يحس عند قراءتها بالملال، فهي بمثابة المنقذ من الضلال. وفي خلوة الشيخ الأمين الصويلحي بمسيد ود عيسي بالجزيرة نال بعض العلوم الشرعية. ثم في قرية كترانج اعتكف في المسجد يرتشف قطر الندى ويتحلى بشذور الذهب فأطلقت لسانه، وصوبت بيانه، لكن شيخاً في ذلك المسجد بقي يراقبه فرأى فيه توقاً للتعلم وحباً للقراءة، فأشار عليه بالسفر إلى بربر للمزيد من التحصيل عند خلاوي الغبش على يد الشيخ محمد الخير، ولم يكن الفتى قد بلغ العشرين. لكنه قبل أن يودعه جلس معه وأرشده إلى الذكر وحلاوته فقال له:

- يا بني إن أردت سلوك الطريق فعليك بالفكر وتواصل الذكر، فالغفلة داء وذكر الله هو الدواء، فبه يطهر القلب إذ كلما طهر رَقّ، فإذا رَقَّ راق، وإذا راق ذاق، وإذا ذاق أفاق، وإذا أفاق اشتاق، وإذا

اشتاق طار إلى الله فوق السبع الطباق، وهبت عليه نسائم الجنة وهو لم يزل في الدنيا بعدَ باق.

ثم أرشده إلى قراءة رسالة القيرواني، وقلده جوهرة اللقاني. وسرعان ما عكف عليهما الفتي الظاميء للمعرفة فالتهمهما التهاماً. وحثه ذلك الكسب في التوحيد والفقه على أن لا يبرح حتى يبلغ قاهرة الفاطمي فيصبح أزهرياً أو يمضي حقباً. فعل ذلك بحماسة الشباب واندفاع الطلاب. لكنه ما كاد يصل غربي بربر حتى تذكر نصيحة ذلك الشيخ فطاب له المقام عند خلوة الشيخ محمد الخير بالغُبُشْ ، ذلك أنه عثر فيها على الإحياء فبدا له أنه وقع على ضالته التي طالما سمع عنها في كترانج، وعبثاً بحث عنها فما وجدها إلا عند هذا الشيخ، فاختلس الإحياء وانفرد به منزوياً عن الناس في خلوة لا تُمَل. وسرعان ما افتقده الشيخ لمَاَّ لاحظ غيابه عن المسجد والجماعة، فسأل عنه الحيران والجيران، وما أفادوه بشيء فطفق يبحث عنه بنفسه في كل مكان، حتى وجده أخيراً في ركن من الأركان، منقطعاً بالإحياء عن الأحياء، فراعه ذلك وأزعجه، وانتزع الكتاب من يد الفتى، خوفاً عليه، ثم أمره في لهجة حازمة، ألا يقترب من هذا السِّفْر، إلا بعد الإكثار من الاستغفار والذكر ليتمكن في علوم التوحيد، ومعرفة العلاقة بين الله والعبيد. قال له:

- إن أردت طريق الأنبياء وطريقة الأولياء فعليك بالتزام نهجهم وسلوك طريقهم. ولن تتمتع بفيض بريقهم إلا إن شربت من إبريقهم، فالنور لا يفيض على قلبك بمجرد مطالعة الإحياء!

راعه ما سمع عن خيبة أمله في الفيوضات الروحانية، والفتوحات الإلهية الربانية، فقد كان يظن أن الإحياء هو غاية مقصد السالكين، إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين. تساءل في فزع:

- وبماذا يفيض إذن؟

- بالتفقه أولاً ثم بالزهد في الدنيا ثانياً، والتبرؤ من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكُنْهِ الهمة على الله تعالى. فمن كان لله كان الله له. وأما الإحياء فهو منتهى سلوك المريد. لكنه لن يقودك بمجرده حتى تقف بباب العزيز الحميد.

- أرشدني يا سيدنا أرشدك الله.

- ابدأ بمعرفة التوحيد فهو غاية المرام، ثم عليك بفقه مالك لتعرف الحلال والحرام، ثم اقطع علائق الدنيا الدنية، وأفرغ قلبك منها بالكلية، واقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن، وعن العلم والولاية والجاه فذاك من حُسْنِ الفِطَن.

- وماذا يحصل إن أنا فعلت ذلك ياشيخ؟

- يصير قلبك إلى حالةٍ يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه. ثم تخلو بنفسك في زاوية، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب الباقية، وتجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا تفرق فكرك بقراءة ولاكتابة ولا غيرهما، بل تجتهد أن لا يخطر ببالك شيء سوى الله تعالى، فلا تزال بعد جلوسك في الخلوة قائلاً بلسانك: الله الله، على الدوام مع حضور القلب حتى تنتهي إلى حالة تترك تحريك اللسان، وترى كأن الكلمة جارية على لسانك وهو في حالة السكون، ثم تصبر عليها إلى أن يمحي أثرها عن اللسان وتسري في الأبدان، وتصادف قلباً مواظباً على الذكر. ثم تحافظ عليه إلى أن يمحي عن قلبك صورة اللفظ وحروفه، وهيئة الكلام وتصريفه، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبك حاضراً فيه، كأنه لازم له

لا يفارقه، فتكون بما تفعله متعرضا لنفحات رحمة الله، فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتحه لك من رحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذا الطريق. وعند ذلك إذا صدقت إرادتك وَصَفَتْ هِمَّتُك وحَسُنَتْ مواظبتك فلم تجاذبك شهواتك، ولم يشغلك حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبك.

صمت صاحبنا صمت القبور، فقد فهم نصيحة الغبشاوي لكنه كان قد أكمل قراءة الإحياء قبل ذلك فلم تنفع معه النصيحة بسلوك الطريقة الصحيحة.

لكنه أدرك من العلوم ما لم يدركه لِدَاتُهُ، فلم يفته الصرف والنحو والفقه والتصوف والتفسير، وما فاته الأدب ولا العلوم العقلية، فقد درس الفلسفة والعلوم الطبيعية والمنطق وعرف الغزالي وابن رشد وابن سينا وقرأ تفسير الجلالين سبعاً وسبعين مرة. ثم أصبح لا يأكل من الطعام الذي يصنع لطلاب الخلوة فمصدره من مال الحكومة التي تجمع أموالها بالحرام حين تثقل كاهل الأهالي بالضرائب والمكوس. بل بقي يترقب ما يرسله إليه أهله ليدفع عن نفسه غائلة الجوع، ثم لا يلبث أن يبلغ في الزهد مقاماً ينتهي به إلى أن يتصدق بما يصله من أهله من أموال، ويخرج إلى الغابة يحتطب فيبيع ما يقدر على حمله من أخشاب في السوق ليأكل ببعض ثمنه ويتصدق بالباقي علي الفقراء والطلاب والمساكين.

ثم يهاجر إلى أُمْ مَرَّحِى ليسلك الطريقة السمانية على شيخها محمد شريف نور الدائم، وهناك يعثر على كنز من كنوز علم الباطن، فيقرأ لأحمد بن إدريس، لكنه يوم يتعرض للفتوحات المكية يدرك أسرار المهدية ويتعرف عليها بالكلية، فترسخ في أعماقه وتستقر في آماقه.

أدرك حينها أن عليه أن يسلك هذا السبيل بالذات لا بالعَرَض والاتباع، ليكون من أهل المشاهدة والغَرَض بدلاً أن يكون من أهل السماع، وبغير هذا لا يفتح له باب، ولن ينكشف له الحجاب. فالمحب الحقيقي لا يكتفي بما ينال، بل يطمع فيما لم ينل، ويبقى دائماً متطلعاً للمزيد، كلما ثمل من كؤوس المشاهدة قال اسقني. قالت عائشة سمعته يوماً يترنم فظننته يغني ومن دهشتي طرتُ إليه طيراناً لأسمع ما يقول فوجدته ينشد:

تَكَاثَرَ وَجْدُ القَلْبِ سِرَّاً وَجَهْرَةً

وَصَبْرِيَ عَنِّي فِي الهَوَى زَادَ نَفْرَةً

وَلَمَّا حَسَا قَلْبِي مِنَ الكَأْسِ حَسْوَةً

تَمَنَّيْتُ مِنْ لَيْلَى عَلَى البُعْدِ نَظْرَةً

لِتُطْفِي جَوَىً بَيْنَ الحَشَى وَالأَضَالِعِ

جَرَى طَمَعِي فِي حُبِّ لَيْلَى بِمَا جَرَى

وَلَيْلَى تَوَارَتْ عَنْ عُيُونِي فِي الوَرَى

سَأَلْتُ عَسَى أَلْقَى الخَيَالَ الذِي سَرَى ...

فَقَالَتْ نِسَاءُ الحَيِّ تَطْمَعُ أَنْ تَرَى

بِعَيْنِك ليْلـى مُتّ بِدَاءِ المَطامِـــع

رَثَتْ لِي نِسَاءُ الحَيِّ فِي نَيْلِ قُرْبِهَا

وَقُلْنَ اصْطَبِرْ مَا أَنْتَ مِمَّنْ تَنَبَّهَا

وَهَا هِيَ عَنْكَ الحُسْنَ تَسْتُرُ وَالبَهَا

وَكَيْفَ تَرَى لَيْلَى بِعَيْنٍ تَرَى بِهَا

سِوَاهَا وَمَا طَهَّرْتَهَا بِالمَدَامِعِ

هِيَ السِّرُّ سِرُّ الغَيْبِ فِيكَ تَسَتَّرَا

وَقَدْ ضَلَّ مِنْكَ العَقْلُ حَتَّى تَحَيَّرَا

وَهَيْهَاتَ تَلْقَاهَا وَلَوْ كُنْتَ فِي الكَرَى ...

وَتَلْتَذُّ مِنْهَا فِي الحَدِيثِ وَقَدْ جَرَى

حَدِيثُ سِوَاهَا فِي خُرُوقِ المَسَامِعِ

أَلَا يَا لَقَوْمِي كَيْفَ أَرْوَى مِنَ الظَّمَا

وَعَيْنِي تَرَى الأَغْيَارَ وَالعَيْنُ فِي العَمَى ...

وَمَا الصَّبُّ إِلَّا مُنْشِدٌ قَدْ تَرَنَّمَا

أُجِلُّكِ يَا لَيْلَى عَنِ الغَيْرِ إِنَّما

أَرَاكِ بِقَلْبٍ خَاشِعٍ لَكِ خَاضِعِ

حين يترنم بهذه الأبيات يغيب عن دنيا الشهود، فتضطرم أوصاله، وتتبدل أحواله، منخرطاً في نوبة من البكاء. ثم تأخذه الغشية فيفيق منكسر القلب، لكنه ينشط للعبادة فلا يكلم أحداً. سألته يوماً هل أنت شيخ يا منتظر؟

فقال لي:

- كلا لست شيخاً.

ثم سكت لحظات وكأنما يستنزل إلهاماً، ثم قال لي:

- تعلمين يا عائشة أن الشيوخ هم على خمسة أنواع: شيخ الجماعة، وشيخ الإرشاد، وشيخ التربية، وشيخ الترقية، وشيخ النقالة. أما شيخ الجماعة فهو الذي يدير لهم مصالح دنياهم، وشيخ الإرشاد هو الذي يعلم العلم والقرآن، وشيخ التربية هو الذي يربي مريديه بالسلوك والأوراد والخلوات، وشيخ الترقية هو الذي يرقي تلميذه بالدعوة الصالحة والنظر بعين الرضى، فيرقيه من منزلة إلى منزلة

حتى يبلغ المقصود، وشيخ النقالة هو الذي تسعد الطائفة بنظره حيث إذا نظر إلى قوم فساد صاروا يرقصون مجاذيبَ في ساعتهم.

قلت له:

- أنت ولي من أولياء الله الصالحين؟

قال لي:

- كلا لست منهم فهم درجات، ولهم ألقاب. فهناك الغوث والأقطاب والأبدال والأوتاد والعصب والأخيار والنقباء والنجباء والعمد. كلا لست من هؤلاء!

قلت له:

- أنت صوفي إذاً؟

قال:

- ولا أنا بالصوفي يا عائشة، فالصوفية على ثلاثة أقسام. الأول باطنه صوفي وظاهره شرعي، وهو أدنى مراتب الصوفية لأنه يعرفه العام والخاص فلا ينكر عليه أحد. والثاني باطنه صوفي وظاهره صوفي، وهو أعلى من الأول لأنه لا يعرفه إلا الخواص، وأما العوام فينكرون عليه لأجل جهلهم بحاله. والثالث باطنه صوفي وظاهره بدعي، وهذا أعلى درجات الصوفية.

قلت له:

- إن لم تكن أياً من هؤلاء جميعهم فأين هو مقامك وما هي منزلتك؟

قال لي:

- قيل لي إني من ينسخ كل هذا بمقام الفيض يوم الإفاضة.

قلت له:

- من أين عرفت؟ وكيف؟

أخبرني أنه أخذ يستعرض ما قرأه في فتوحات الشيخ الأكبر، عن كلام عبد الله، وما سمعه منه حين قال إنه علم هذا عن طريق الكشف والفيض الإلهي. قال لي إنه لم تغب عن خاطره حكاية الشيخ محيي الدين حين قال: دخلت يوماً بقرطبةَ على قاضيها أبي الوليد بن رشد، وكان يرغب في لقائي لما بلغه ما فتح الله به عليَّ في خلوتي، فكان يُظهر التعجُّبَ مما سمع. فبعثني والدي إليه في حاجةٍ، قصداً منه حتى يجتمع بي، فإنَّه كان من أصدقائه، وأنا آنذاك صبيٌّ ما بقل وجهي ولا طرَّ شاربي. فعندما دخلت عليه، قام من مكانه إليَّ محبَّةً وإعظاماً، فعانقني وقال لي: نعم! قلت له: نعم! فزاد فرحه بي لفهمي عنه، ثم استشعرتُ بما أفرحه، فقلت: لا! فانقبض وتغير لونه وشك فيما عنده. وقال لي: كيف وجدتم الأمرَ في الكشف والفيض الإلهي، هل هو ما أعطاه لنا النظر؟ قلت: نعم ولا، وبين نعم ولا تطيرُ الأرواحُ من موادِّها والأعناق من أجسادها! فاصفرَّ لونُه.

قال لي إنه قرأ في الفتوحات: إعلم أيدنا الله أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جورا وظلما، فيملؤها قسطاً وعدلاً، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد طوَّلَ الله ذلك اليوم حتى يلي ذلك الخليفة من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولد فاطمة، يواطيء اسمه اسم رسول الله، »يشهد الملحمة العظمى مأدبة الله بمرْج عَكَّا، يبيد الظلم وأهله، يقيم الدين فينفخ الروح في الإسلام. يعز الإسلام به بعد ذله، ويحيا بعد موته. يضع الجزية، ويدعو إلى الله بالسيف، فمن أبى قتل، ومن نازعه خذل. يظهر من الدين ما هو عليه في نفسه ما لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لحكم به. يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى إلا الدين الخالص. أعداؤه مقلدة الفقهاء أهل الإجتهاد لما يرونه من الحكم بخلاف ما حكمت به أئمتهم، فيدخلون كرهاً تحت حكمه خوفاً من سيفه وسطوته، ورغبة فيما لديه. يفرح به عامة المسلمين أكثر من خواصهم، ويبايعه العارفون من أهل الحقائق عن شهود وكشف بتعريف إلهي. له رجال إلهيون يقيمون دولته وينصرونه، هم الوزراء، يحملون أثقال المملكة، ويعينونه على ما قلده الله. فشهداؤه خير الشهداء، وأمناؤه أفضل الأمناء، وأن الله يستوزر له طائفة خبأهم له في مكنون غيبه، أطلعهم كشفاً وشهوداً على الحقائق، وما هو أمر الله عليه في عباده. فبمشاورتهم يفصل ما يفصل، وهم العارفون الذين عرفوا ما ثَمَّ، وأما هو نفسه فصاحب سيف حق وسياسة مدنية. يعرف من الله قدر ما تحتاج إليه مرتبته ومنزله، لأنه خليفة مسدد، يفهم منطق الحيوان، يسري عدله في الإنس والجان، من أسرار علم وزرائه الذين استوزرهم الله له لقوله: »وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ«، وهم على أقدام رجال من الصحابة، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهم من الأعاجم ما فيهم عربي، لكن لايتكلمون إلا بالعربية. لهم حافظ ليس من جنسهم ما عصى الله قط، هو أخص الوزراء وأفضل الأمناء«.

قال جدك فقلت لها:

- لكن يا أمي كيف تجاوز محمد احمد منزلة من سبقه في هذا الطريق؟

قالت:

- ياولدي ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فإن أولئك ضربوا أكباد الإبل ليسألوا لكن محمد احمد جاءه الجواب عنده يسعى إليه. فكم من ولي طال عمره وحسن عمله ثم مات وما حصل له سجود القلب ولا علم أن للقلب سجوداً مع تحققه بالولاية ورسوخ قدمه في الدراية، فإن القلب إذا سجد لا يرفع أبداً من سجدته فيظل ثابتاً على تلك الحال لا يتقلب، في حين يرى أكثر الأولياء تقلب القلوب من حال إلى حال. لكن محمد احمد رأى أن قلبه سجد وانتظر أن يرفع فلم يرفع فبقي حائراً. سأل طيفه أيسجد القلب؟ فاحتار طيفه ثم أحاله إلى قرينه الذي لم يعرف الجواب ثم استشعر ملكاً يَرِفُّ بقربه فسأله: أيسجد القلب؟ فقال: إلى الأبد. وما زال يظن أنه بلغ مقام سهل التستري باتباع الطَريق السهل كيف والشيخ الأكبر يقول:

مَقَامُ سَهْلٍ سُجُودُ القَلْبِ لَيْسَ لَهُ

فِي غَيْرِ سَهْلٍ مِنَ الأكوانِ أَحْكَامُ

لا يَرْفَعُ القَلْبُ رَأسَاً بَعْدَ سَجْدَتِهِ

الوَجْهَ يَرْفعُ وَالتغْيِيرُ إعْلامُ

فَإنَّهُ غَيْرُ مَشْهُودٍ بِقِبْلَتِهِ

وَقِبْلَةُ القَلْبِ أَسْمَاءٌ وَأَعْلامُ

تُبْدِي حَقِيقَتُهُ تَأْيِيدَ سَجْدَتِهِ

وَمَا لَهُ فِي عُلُومِ الخَلْقِ أَقْدَامُ

وقد قرأ أن الشيخ الأكبر أخبر أن هذه الحالة هي منزلة التمكين ومنزل العصمة فعلم محمد احمد أنه بلغ العصمة!

ثم إنه أُمر بالسياحة ابتغاء وجه الله، سياحة تبتل وتحنُّث يخلو فيها إلى الله، وينطلق نحو الملأ الأعلى طالباً الحق، خالي الفكر صافي الذهن، يسيح عبادةً واستزادةً من أنوار من سبقوا، ويسترشد الطريق، ويطلب البركة، فيجلس لأرباب المقامات العالية والمنازل السامية.

قال لي إنه كان يعلم أن هذا الطريق لا يمكن الوصول إليه إلا بالجمع بين اللغة والفقه، والتفكر والزهد، مع الخلوة والانقطاع للعبادة الخاشعة والإخبات. ثم بالتواضع وأَطْرِ النفس على قبول الحق. ولذا فقد عزم على ملازمة شيخه يطحن له غذاءه بيده ويطبخ له طعامه تزلّفاً إليه وتقرباً، وذلك مع الصوم والعبادة، حتى إن شيخه أجازه شيخاً للطريقة السمانية، فعلم أنه وضع قدمه في أول الطريق. لكنَّ أخويه جاءا وألحا عليه أن يعود معهما ليعمل في صناعة المراكب، وليجمع بعض المال فيتزوج ابنة عمه فاطمة بنت حاج، فقد كبرت ونضجت واستدار عودُها والتف جسدها. لم تَرُقْ له الفكرة البَتَّةَ لكنهما ما زالا يُحَسِّنَانِ له صورتها حتى عاد معهما إلى الخرطوم فتزوجها.

وفي ليلة الدخلة رأى الرجال والنساء يرقصون مختلطين فمنعهم من الرقص، لكن نهيه لهم وزجره العنيف أغضبهم فانصرفوا وتركوه. وبقي وحيداً لا يختلط بالناس ولا يخالطونه. وكانوا حين يرونه يتجنبونه. فاعتزل الناس إذ اعتزلوه، وترك صناعة المراكب وانقطع عن العمل وبقي مع فاطمة. وفي هذه المرة لجأ شقيقاه إليها لتعينهما عليه، فبقيت تهجُرُه ليقبل نصحها ويسير طوع إرادتها فيعود لصناعة المراكب، لكنه لم يكترث لذلك.

وفي يوم وجدته يقرأ القرآن فانتزعت المصحف من يده وألقته على الأرض وأمرته بالخروج إلى شاطيء النهر ليعمل، فطلقها وخرج غاضباً. وافتتح خلوةً لتعليم الغلمان القرآن الكريم، لكنه لم يصبر على ذلك فتركه، وغادر إلى الجزيرة أبا وبقي يختلف إلى شيخه محمد شريف بالمرابيع القريبة من الجزيرة أبا.

حين خرج من الخرطوم كان يذكر أيامه وهو يسير في شوارعها فيرى أنه غريب في هذه المدينة التي تعج بالأجانب فهؤلاء الترك الكذابون مكنوا للنصارى الملاعين يفعلون بالخرطوم ما يشاءون فاسترقوا أهلها وصيروهم عبيداً.

قال لي مرة قبل خروجه من الخرطوم:

- يا عائشة لو أن الأمر بيدي لحررت جميع العبيد وأحييت هذه البلدة، فالرق موت والحرية حياة. ألم تقرئي قول الله عزوجل: »ومن قتل مؤمناً خطأ فتحريرُ رقبة». ذلك أنَّ القاتلَ لَمَّا أخرجَ نَفْسَاً مؤمنة مِن جملة الأحياء لَزِمَه أن يُدْخِلَ نَفْسَاً مثلها في جملة الأحرار، لأنَّ إطلاقَها مِن قيد الرق كإحيائها، إذ الرقُّ موتٌ حُكْماً، والحريةُ حياةٌ حتماً.

التحق بالطريقة السمانية تلميذاً على الشيخ محمد شريف نور الدائم، فتقدم بسرعة في مسالك الطريق. ثم انتقل ليعيش حياة الزهد بقرية الجزيرة أبا بمنطقة النيل الأبيض عندما أسس مسجداً وخلوة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم الفقه والعلوم الإسلامية، واشتهر بين سكان المنطقة بالاستقامة والورع، فتدافع نحوه المريدون أمثال علي ود حلو وشقيقه الأصغر موسى. وجاءته وفود القبائل مثل دغيم وكنانة والكواهلة والحسنات والهبانية والحسانية يتعلمون من علمه. وجاء أشقاؤه الثلاثة محمد وحامد وعبدالله فأقاموا معه يشتغلون بصناعة المراكب وتجارتها.

استمر بزيارة شيخه محمد شريف نور الدائم حتى اختلف معه للمبالغة في احتفاله بختان أبنائه فلم يتقبلها من شيخه وهو التلميذ الزاهد فطرده الشيخ وأقصاه، وكان قبل ذلك يرى أن هذا التلميذ الجديد منافس له فالمريدون يقصدونه أكثر مما يقصدون الشيخ نفسه، ثم إنه فوق ذلك يدعو بدعوى المهدية وهذه كبيرة في نظر الشيخ. لكنه لم يكن يشكك في ورع تلميذه وزهده واستقامته. فقد وصفه بعد ذلك بقوله:

كَمْ صَامَ كَمْ صَلَّى وَكَمْ قَامَ كَمْ تَلا

مِنَ اللَّيْلِ مَا زَالَتْ مَدَامِعُهُ تَجْرِي

وَكَمْ بِوُضُوءِ اللَّيْلِ كَبَّرَ لِلضُّحَى

وَكَمْ خَتَمَ القُرْآنَ فِي سُنَّةِ الوَتْرِ

سار محمد احمد ليلحق بالشيخ القرشي ود الزين بمنطقة الحلاوين في الجزيرة وهو منافس للشيخ محمد شريف في الطريقة السمانية بل يتفوق عليه بكونه أخذ الطريقة مباشرة من الشيخ أحمد الطيب البشير ليس بينهما واسطة. ولم يلبث الشيخ القرشي أن رحب بتلميذه الجديد وحين طلب منه الشيخ محمد شريف بطرد هذا التلميذ من الطريقة قال الشيخ القرشي: »إني رأيت محمد احمد مستحقاً ومنع المستحق ظلم». ثم مضي في ترحيبه بمحمد احمد أبعد من هذا فزوجه ابنته النعمة التي أنجب منها ابنه علياً.

ولما توفي هذا الشيخ عمل محمد احمد على بناء قبة على قبر شيخه وهناك التقى بالتعايشي الذي أخبره -كما أخبر الزبير باشا ومحمد شريف نور الدائم من قبل - بأنه رأى رؤيا خلاصتها أن محمد احمد هو المهدي المنتظر، وأن عبدلله هو حواريه الأول. فنشأت بينهما صداقة وثيقة.

قال لي يوماً:

- تعلمين يا عائشة أن هؤلاء الترك كفار وذلك لكونهم بعدما دخلوا بلادنا أباحوها للنصارى، ولأعوانهم من دول الغرب، فجلبوا النصرانية إلى بلادنا والله عز وجل يقول: »يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

تتخِذوا الْيَهُودَ وَالنصَارَ   أَوْلِيَاءَ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتوَلهُم مِّنكمْ فإِنهُ مِنْهُمْ إِنّ الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»، ففي حمى المقدوني الهالك محمد علي دخلت الكنيسة الكاثوليكية بلادنا، وجاء المنصرون والقساوسة والرهبان متدثرين بثياب المستكشفين والسياح والفنيين، فعملوا على تنصير الأهالي رغم أن قوانين الترك كانت تقول »لا يجوز إقامة أي إرسالية تبشيرية شمال خط العرض العاشر من خط الاستواء في أي جزء من السودان المعتبر مسلماً من قبل الحكومة»، إلا أن حكامهم سمحوا ببناء الكنائس في بلاد المسلمين، وفي قلب المدن وفي مواقع هامة وبمواصفات جمالية عالية، تذهب بالقلوب والأبصار، كما أقاموا الإرساليات في مديريات كردفان في منطقة جبال النوبة، ولم توضع قيود على استيراد وتوزيع وبيع الإنجيل كتاب النصارى.

حين كنت في الخرطوم يا عائشة رأيت القسيس الإيطالي اللازاري لويجي مونتوري الذي هو من جمعية الآباء البيض الذي قيل إنه حين جاء إلى الخرطوم منذ يوليو سنة ثلاث وأربعين، أنشأ كنيسة كاثوليكية في الخرطوم وألحق بها مدرسة، وكذا المطران الايطالي دانيال كمبوني الذي أتم بناء الارسالية الكاثوليكية بالخرطوم سنة ثمان وسبعين. وقبل ذلك بعام واحد رفعته الكنيسة إلى درجة أسقف اعترافاً بصحة مشروعه ونشاطه.

كنت أسير على شاطيء النيل في الخرطوم فأسمع أجراس الكنائس وهي تدق جرس السلام عليك يامريم. والخرطوم تعج بأساقفة الكنائس والراهبات رغم قلة عدد النصارى. البعثات التنصيرية احتلت أجمل المواقع على شاطيء النيل في بلاد المسلمين وأنشأت الحدائق وزرعت أشجار النخيل أمام باحة الكنيسة. وبقيت تقيم الاحتفالات الكنسية كل ليلة. حين كنت أسير في ذلك الطريق أرى القسيس ألويس بونومي وهانسل قنصل النمسا وليقناني قنصل إيطاليا يجلسون على الشاطيء. ثم أسير قليلاً فيقابلني القسيس كمبوني الذي اعتاد أن يتمشى على الشاطيء وهو في الخمسين من عمره. كانوا يتجمعون كل ليلة فيقيمون الليالي الساهرة. وكان يحضر تلك الاحتفالات ماركوبولي بك والدكتور تسور بوخن وماركيت وجميع هؤلاء منصرون وكانت هناك امرأة رحالة متجولة اسمها جين شوفر تنطلق رحلاتها من الخرطوم إلى مجاهل إفريقيا لتنصيرها. كنت ألمحها تذرع الشاطيء نصف عارية وقد جدلت شعرها جدلتين وربطت وسطها بقطعة قماش وهي تسير غير مكترثة لأحد ولا عابئة بمن حولها. وفي أحيان أخرى كنت تراها جالسة تدون وتكتب مشاهداتها عن هذه البلاد.

قال جدك قلت للسيدة عائشة:

- أخبريني يا أمي هل كان محمد احمد حريصاً على المهدية بعدما قرأ وصف المهدي في الفتوحات؟

قالت:

- زعم الكذابون أن الشيخ محمد شريف كان يحرضه على دعوى المهدية ويحسنها في عينه ويثني عليه لكنه حين صدق هذه الدعوى وقبلها وأشربها في روحه أنكر عليه ثم أصدر منشوراً إلى أتباعه يقول فيه إنه عزل محمد أحمد من الخلافة وأبعده عن طريقته نظراً للدعاوى الكاذبة بالمهدية ليتوصل بذلك إلى الرياسة والملك. وأنا أعلم أن محمد احمد ما كان من طلاب الرياسة ولا الدعاة للملك يوماً! فمن الذي كان وراء تحريض الشيخ شريف على تلميذه ومن الذي كتب على لسانه ثم نسبه إليه؟ أم أن هذا كان شيئاً ملفقاً ومنسوباً إليه فهو لم يفعله، أم أنه كتبه بالفعل تحت التهديد والوعيد؟ أم أنه كتب

بالفعل خطابا ولم يتضمن كل ذلك ثم زادوا فيه بالإضافة والحذف يا ولدي؟ مازلت حائرة فلم يقبل عقلي كل هذا ولا إن طال بي العمر أعلمه فمحمد احمد لم يخبرني بذلك.

قالت أيضاً:

- زعموا أن أن الشيخ شريف قال عن الخليفة: في سنة من السنوات وقبل ظهور محمد احمد جاءني رجل من البقارة يروم سلوك الطريقة السمانية على يدي فلقنته أورادها ومكث ملازماً لخدمتي وأخبرني أنه جاء مع والده من بلاد الكَلَكَة جنوب مقاطعات دارفور قاصدين الأقطار الحجازية لتأدية فريضة الحج، وأنهما فقيران لا يملكان غير عجل من البقر ذللاه بزمام وامتطياه على مألوف عادة أهالي تلك البلاد. ولما وصلا إلى بلاد الجُمَع من تخوم كردفان الشرقية مات أبوه ولحق به العجل، فأقام الرجل بمنزلي نحو عامين، وكان أكثر كلامه معي قوله: »إنك المهدي المنتظر من ارتاب في ذلك فقد كفر« فكنت أنهاه عن هذا القول ولا ينتهي. وفي ذات يوم قلت له أنا لست مهدياً وأبغض شيء إلىَّ سماع هذه الكلمة التي لا يسير بها غير تلميذي الذي طردته، محمد احمد وقلت له على سبيل السخرية والازدراء إذا كنت ممن يتوقعون ظهور المهدي فعليك به. وفي اليوم التالي سألت عنه فلم أجده! ثم علمت أنه لحق بمحمد احمد المتمهدي وهو في الحلاوين يشيد قبة الشيخ القرشي وأنه حينما وقعت عينه عليه خرَّ على الأرض كالمغمى عليه، وحين رفع رأسه سأله الحاضرون عن سبب إغمائه فقال: نظرت أنوار المهدية على وجه هذا الرجل – يقصد محمد احمد - فصعقت من شدة تأثيرها على حواسي. ومن ثم صاحبه وعاد معه إلى جزيرة أبا وكان الدناقلة أقارب المهدي يضطهدونه ويزدرونه ويتهمونه بالكذب وهو يقابلهم بالحلم والصبر حتى أفضت إليه الخلافة فانتقم منهم شر انتقام.

- وهل هذه الرسالة صحيحة يا أمي؟

- كلها كذب وافتراء ياولدي. والشيخ شريف لم يكتب حرفاً واحداً منها بل كتبها هؤلاء الأتراك الكذابون وجواسيسهم الأوروبيون ونسبوها إلى الشيخ شريف وهو منها براء. هؤلاء المنافقون لم يجدوا وسيلة للإساءة إلى محمد احمد إلا وفعلوها وفي هذه المرة ركبوا ظهر التعايشي ليتوسلوا بذلك إلى الإساءة إلى محمد احمد. ياللعار.

- لكن ما الصحيح في حكاية التعايشي يا أمي؟

- إليك ما أعلمه من قصة اجتماع التعايشي مع محمد احمد. فهي تدل على حيلته ودهائه ومكره. كان عبد الله موقناً أنه سيقابل المهدي فكرس حياته لهذا الأمر وسبب يقينه هو أن والده الرجل الصالح قال له قبل وفاته أنه سيلتقي بالمهدي وحدثه بصفاته وعلاماته ثم اشتد يقينه لما أقام بمنزل الشيخ شريف نحو عامين سمع منه أنه طرد تلميذاً اسمه محمد احمد حين كان من حوله يشيعون بأنه هو المهدي ثم انتقل عبد الله إلى الشيخ القرشي فسمع من حيرانه أن المهدي المنتظر سينبثق من بين صفوفهم وأن الشيخ القرشي قد أومأ بالمهدية لمحمد احمد فقرر أن يبحث عنه ويتبعه.

جاء عبد الله إلى حيث محمد احمد. وحين وصل نظر إليه طويلاً دون أن يكلمه. اتسعت عيناه دهشة مثل من رأى ملكاً أو شيئاً خارقاً ثم أغشي عليه وسقط على الأرض كالنخلة اليابسة. المنتظر ظن أن

الرجل مصاب بالصرع، لكنه عجب أنه لا يتشنج كالمصروع. ثم أفاق الرجل وصار يستغفر الله. وقال لمحمد احمد أنت نوراني. أنت أنت هو المنتظر. قالها وهو يرتعش بعدما أفاق من الغشية.

نظر إليه محمد احمد ملياً ثم انصرف عنه ودخل خلوته للاشتغال بالحق عن الخلق. استعاذ بالله من الفتن. سأله أن يجعله من الناظرين بنور البصائر. تذكر حديث التعايشي معه قبل سويعات. كان يعلم أن هذا التعايشي فعل نفس هذا مع الزبير باشا بعد أن سمع أنه انتصر على عرب الرزيقات فقال للزبير: أنت هو المنتظر! وأنا سأكون من أتباعك المخلصين لك. وسأله الزبير: كيف عرفت ومن الذي أخبرك؟ فقال عبد الله: عرفت ذلك بالإلهام والكشف والفيض الإلهي! وهو مكتوب في وجهك وعلى جبينك ولا يراه إلا أصحاب الكرامات. فعلم الزبير أن هذا الرجل كذاب كبير وأنه يزكي نفسه! وكان الزبير قد أمر بالقبض عليه لأنهم ضبطوه يكتب الحجبات والبخرات للنساء ويزعم أنها تجلب الولد وتمنع الحسد.

الزبير حين سمع كلامه كذبه أمام الحاضرين في المجلس وقال لهم اقتلوه. لكن مستشاريه في ذلك المجلس لم يقروا قتله لمجرد القول وقالوا له هذا الرجل غرقان أي مجذوب ومصاب بمرض الذهول فصدقهم وأطلقه لكنه قال له: لا تعد إليَّ مرة أخرى ولو رأيتك بعدها قتلتك. فتركه عبد الله وذهب يبحث عن المنتظر.

محمد احمد حين ترك شيخه وذهب إلى الشيخ القرشي الذي كان طاعناً في السن أدخله في الطريقة وجدد له الإجازة بالخلافة بل وبرر له دعوى المهدية وأخذ يشهد له بالسيرة الحسنة ويقول للناس إن محمد احمد هو المهدي وقد عرف هذا عن طريق المكاشفة والإلهام ثم نصح محمد احمد بالسياحة في الأرجاء ليستطلع آراء الناس ويأخذ عليهم العهود بنصرته ومؤازرته حين يعلن دعوته للناس. وكان أهالي كردفان هم أكثر الناس استعداداً لتصديقه واتباعه لما رأوه من ظلم الأتراك وجورهم ولكراهتهم للحكم القائم.

ثم عاد من الحلاوين محل الشيخ القرشي إلى الجزيرة أبا. ولما وصلها علم بوفاة الشيخ القرشي وأنه ترك وصية تقول: إن زمن ظهور المهدي المنتظر قد حان وإن الذي يشيد على ضريحي قبة ويختن أولادي هو الإمام المهدي المنتظر!

وفي الحال جمع محمد احمد ثلاثمائة من أتباعه وعاد إلى الحلاوين لعله يجد المهدي هناك فيتبعه لكنه حين لم يجد إلا نفسه وأتباعه، شرع في بناء القبة من الطوب الأخضر اللَّبِن وختن أنجال القرشي ريثما يأتي المهدي فيقره على ذلك. ثم أدرك أن من يفعل هذا هو المهدي نفسه. قال الناس إن ما فعله المهدي كان حقيقياً لكن الذي ربط حكاية قول الشيخ القرشي بختان الأنجال وبناء الضريح وعلاقتهما بمهدية المهدي هو رجل مدع ويتهمون التعايشي بذلك. بل ويتهمونه بأفعال كثيرة أخرى. كان محمد احمد كثيراً ما يسأل نفسه: هل المهدي هو رجل واحد في الزمان أم أنهم مهديون كثيرون يتعاقبون بتعاقب الأزمان وفسادها فيصلحون ما فسد ويقيمون الدين ويحيونه بعد ما يموت في قلوب الناس؟

قالت عائشة يا ولدي ألا ترى أن الخليفة عبد الله يحرص أن ينادى بخليفة الإمام ويلقب بالسيد وهو يعلم أن المهدي أمر بالزهد في الشهرة وطلب الألقاب وكتب المنشورات ينهى فيها عن التسمِّي باسم الشيخ، والسيد، وغير ذلك من الألقاب وقال لهم إذا فهمتم شُؤم ذلك أحبابي فلا يتسمَّى أحد بعد هذا

بالأمير. ومع أن المهدي سمى ذلك شؤما، إلا أن أمره هذا لم يُسمع فقد استمر عبد الله في التسمي باسم الخليفة والسيد! ليس هذا فقط بل إنه سكت عما كان سبباً في خروج المهدي من الخرطوم أصلاً، فحين جاءت الوفود لتبايعه جاءه شيوخ المهن، مثل شيخ النّجارين، وشيخ الحدّادين وجاء معهم شيخ الملاوطيّة، وعندما عجب من جرأة هؤلاء وقدومهم، هدّأ القومُ من روعه، وذكّروه بخطر هذه المجموعة وما يمكن أن ينجم عنهم من شرور في حال مبادأتهم بالعداوة، وكان شيخ هؤلاء المخنثين يدعى عبدالله، مثل اسم الخليفة. وعندما سأله التعايشي عن اسمه، ردّ بذكاء قائلاً: »يسلم الاسم«، فشدّد الخليفة طلبه للاسم، فردّ شيخهم مرة أخرى بلباقة: »الاسم سالم«، وذلك اتّقاء لغضب الخليفة، فسارت مثلاً، كما سار عليه الاسم سالم. فسُرّ منه الخليفة أيّما سرور للباقته وحسن حديثه، فختم لقاءه بتعليق سار بدوره مثلاً: »الملاوطيّة قولكُم زين، إلاّ فِعِلْكُم شين«، ثمّ عاقبهم بعد ذلك بنفيهم وتشريدهم إلى الرّجّاف، ولكنّه عدل عن ذلك بعد قليل من الزّمن عندما أخبروه بأنهم بدأوا ينشرون هذه الفعلة المنكرة هناك فأمر بإعادتهم وأدخلهم سجن السّاير. و في إحدى زياراته إلى السّجن استقبله الملاوطية بالزّغاريد، على عادة النّساء في التّرحيب، تسليماً منهم بما عليه أمرُهم، فضحك الخليفة، وكان رجلاً لا تفوته روح الدّعابة على قسوته المفرطة، فردّ ممازحاً لهم: »الملاوطيّة صوتكم سمِح بالحيل«! لا أعلم لماذا ذكرت لي هذه القصة لكني فهمت أن بينها والخليفة ما صنع الحداد رغم أنها لم تبدها لأحد من الناس ولم تصرح لي بها إلا من باب التحذير من إفشاء ما حدثتني به خوفاً عليَّ من عاقبة الأمر لو نما إلى علم التعايشي.





الحضرة

قالت عائشة:

- أخبرني المنتظر بالحضرة النبوية التي بويع فيها مهدياً، فقال لي إنه في تلك الحضرة دار حوار بين السلف الصالح الذين حلت أرواحهم وتنادت تأييداً ومباركة له. تملكني الحماس لمعرفة ما دار فيها فقلت له:

أخبرني بالله عليك يا منتظر بما جرى تلك الليلة في الحضرة، فقال لي:

- كانت ليلة مشهودة، رغم أن ساعاتها كانت قليلة معدودة. فقد اجتمعت فيها أرواح الأنبياء والمرسلين مع الأقطاب والأبدال والصالحين، وحضر فيها سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وفيها أخبر الحاضرين بأني المهدي المنتظر وأمرني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام. وأيدني الله تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين، من لدن آدم إلى زماننا هذا، وكذلك المؤمنين من الجن، وفي ساعة الحرب يحضر معهم أمام جيشي سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بذاته الكريمة، وكذلك الخلفاء الأربعة، والأقطاب والخضر عليه السلام، وأعطاني سيف النصر من حضرته ﷺ وأُعلمتُ أنه لا يُنصَرُ عليَّ معه أحد ولو كان أقوى الثقلين الإنس والجن. وأخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله، كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وجميع ما أخبرتك به يا عائشة أخبرني به سيد الوجود يقظة في حال الصحة خالياً من الموانع الشرعية، لا بنومٍ ولا جذبٍ ولا سُكْرٍ ولا جُنونٍ، بل متصفاً بصفات العقل.

قلت له:

- وكيف حدثت هذه الحضرة يا منتظر؟

فقال لي:

- بدأت تجلياتها وأشرقت أنوارها أمسية الخميس ليلة الجمعة ثم تكررت يوم الجمعة بعد الصلاة فقد جلست أذكر الله عزوجل وأصلي على نبيه صلاة دائمة مستمرة حتى غبت عن الحضور ورأيت يقظة لا مناماً أني أصعد إلى السماء فرأيت أرواح الصالحين ووجوه الأنبياء والمرسلين وجموع الملائكة قادمين ترف أجنحتهم من فوقنا، وقد انعقدت رايات حمراء وخضراء وزرقاء تسد أقطار السموات، وارتجت الآفاق بالتسبيح والتهليل والتكبير، وبالصلاة على النبي البشير النذير، حتى ظهر وأطل عليه السلام بوجهه الذي يشبه بدر التمام، فأنار ذلك المجلس المنعقد بين السماء والأرض، ثم سلم علينا فرددنا عليه السلام، وفي الحال كشف الغطاء وأزيلت الحجب وعرض علينا أحوال ما يكون في مقبل الأيام، من الأحداث الجسام، والمسائل العظام، ورأيت أني أخوض المعارك ومعي الملائكة الكرام. وخوطبت بأني إن لم أقبل المهدوية واخترت طريقاً آخر فسوف تزهق أرواح كثيرة وسيقع الظلم من هؤلاء الكفار على أهل البلاد بأكثر مما هو حاصل اليوم، وأما إن قبلت التكليف فسوف يتم إنقاذ هذه الأرواح ورفع الظلم عن الضعفاء والمساكين، وفي الحال قبلت التكليف، فرأيت مصارع الكفار وهزيمة بني الأصفر وفتح البلدان، وتم تسليمي حبال النصر وقيل لي خذها بقوة ولا

تفرط فيها فإنك منصور، وقيل لي لقد أذن لك بالتشرف بالسلام على السراج المنير، فتقدم وأخذ بيدي وأجلسني على كرسي المهدوية ثم قال للفقيه عيسى إن شيخك هو المهدي فرد الفقيه بأنه مؤمن بذلك. فقال له النبي من لم يصدق بمهديته فقد كفر بالله ورسوله. وكرر ذلك ثلاثاً.

وفي تلك الحضرة المباركة خاطب الخليفة عبد الله الجمع قائلاً: إنه مؤمن بالمهدي ولكن لم يصدقه الناس بعد. فتكلم الشيخ الطيب أن محمد احمد حين ولادته عرف مهديته أهل الباطن وأهل الحقيقة فما أتم أربعين يوماً إلا وعرفته الجمادات والنباتات.

ثم تكررت الحضرة المباركة كَرَّةً أُخرى ليلة الأربعاء غرة شعبان سنة (١٢٩٨هـ) الموافق (٢٩ يونيو سنة ١٨٨١م) وفيها تليت لنا جميع الأحوال إلى دخول مكة ومنازعة أهلها ومبايعة الضعفاء والغرباء أولاً ثم مبايعة الشريف ملك مكة وجميع أشرافها معه.

وفي تلك الحضرة انضم الشيخ التوم لركب الموقنين بمهديتي، وقرأ الشيخ البصير عليَّ السلام بالمهدوية، وكذلك فعل الشيخ القرشي ثم أمداني بنصائحهما. وتدخل الخليفة عبد الله من جديد ليقول بإنكار الناس لمهديتي، فأكد له الشيخ القرشي صحتها لأن الشيخ الطيب قبل مماته أفضى إليه بأنه يدرك المهدي ويلاقيه وأنه شيخه بعينه. وحدَّث الخليفة عبد الله النبي والشيخ عبد القادر الجيلاني عن إنكار الناس للبس الجُبَّة فرد النبي بما يرضيه ثم أمر جبريل والنبي الخضر بأن يتبعاني ولا يفارقاني، ووعدني النبي بالبيعة في مكة!

ثم تواترت الكرامات بعد تلك الحضرة يا عائشة، فقد ظهر بعدها النجم الكبير ذو الذنب في سماء البلاد في يوم (٢٨ سبتمبر ١٨٨٢م) وتمدد مثل شراع السفينة، واستمر في الطلوع كل يوم قبل الفجر وصار يتمدد حتى يخفيه نور الشمس فيبقى على ذلك أياماً والناس عرفوا أنه نذير شؤم على الحكومة وبشارة فألٍ لي ولأنصاري.

وقالوا إن المهدي يحارب بسيف القُدرة فيحول رصاص العسكر إلى ماء لا يضر بالأنصار، وأن النار تخرج من حرابهم وسيوفهم وعصيهم فتحرق أجسام عسكر الحكومة. وبعضهم رأى اسمي منحوتاً على الحجر ومنقوشاً على ورق الشجر وبيض الطيور البرية وفي آذان المواليد من الأنعام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قلت لعائشة:

- كيف صدق المهدي مثل هذا الكلام يا أمي؟

فقالت:

- المهدي صِدِّيق يا ولدي، ولهذا فقد قبل كل هذا الذي يشيعه أنصاره عنه وعن مهديته. بل إنه كتب للشلالي قائلاً: وأيضاً قد شاهد جمع من الإخوان التهاب النار في أعضاء العساكر المقتولين جهاراً تعجيلاً لعقوبتهم وإظهاراً لحقيقتهم. وعندما فشلت محاولة ود إبراهيم لاغتيال المنتظر فلم ينطلق رصاص مسدسه ليقتل مهدي الله الذي يشيعون أنه ظهرت إشاراته على الشجر والحجر والمدر وتناقلت بشاراته زبر الحديد وآمن به رصاص الجنود عرف الناس أن مهدي الله مؤيد بالكرامات والكشف، فالنبي صلى الله عليه وسلم يظهر له ليخبره بأمر التقرير الذي بعث به محمد سعيد باشا

مدير إقليم كردفان والرؤساء المعتقلون في مدينة الأبيض إلى عبد القادر باشا حكمدار السودان يذكرون فيه الأسباب التي حملتهم على التسليم للمهدي ويختمون عليه، لكن يوسف منصور وكيل بوليس الأبيض يخاف أن يقع التقرير في يد المهدي فيفضى للمهدي بأمر التقرير وذلك بأمر النبي له!

ولماذا لا يكون المنتظر مؤيداً من النبي والملائكة ومؤمني الجن ياولدي فالأتراك قد بسط الله لهم النعم فظنوا أن الملك لهم فخالفوا الرسل والأنبياء وحكموا بغير ما أنزل الله وأساءوا إلى الدين فخذلهم الله لينقلب أمرهم شر منقلب. وهؤلاء الترك كانوا يسحبون الرجال بالسلاسل، ويسجنونهم في القيود ويأسرون النساء والأولاد فيستعبدونهم ويسترقونهم، ويقتلون النفس التي حرمها الله بغير حقها وكل ذلك لأجل الجزية التي لم يأمر الله بها ولا رسوله، ومع ذلك لا يرحمون صغيراً ولا يوقرون كبيراً. وسيد الوجود صلى الله عليه وسلم أخبر المنتظر بأن الأتراك كفار، وأن طاعتهم بعد مجيء إمام الدين كفر وضلال لأنهم مخالفون لحدود الله تعالى وساعون في إطفاء نوره.

المهدي يا ولدي كان يعلم أن طائفة العلماء ستقف في طريقه فهو قد قرأ من نصوص ابن عربي أن أعداء المهدي هم مقلدة العلماء فأعد لهم العدة. وبالرغم من معرفته بهم فقد كاتبهم وخاصة الشيخ الأمين الضرير مميز علماء السودان، فقد دعاه للبيعة وكتب يحكي له عن اجتماع النبي صلى الله عليه وسلم بأرواح الذين أنكروا مهديته من الأولياء والعارفين والعلماء العاملين، وعن توبيخه لهم وما عدده لهم من النعم الدينية والدنيوية الظاهرية والباطنية التي أنعم الله بها عليهم وعن جحودهم وشحهم في الشكر وأن محمد احمد قد طوِّقَ بالمهدية لأنه شكر الله فولاه عليهم فمالهم ينكرون ويحاجون. وصوَّر كيف طلب أولئك النفر من العلماء والأولياء العفو من المهدي بتوجيه من الرسول ﷺ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



مهدي أم متمهدي

«يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى إلا الدين الخالص. أعداؤه مقلدة الفقهاء أهل الإجتهاد لما يرونه من الحكم بخلاف ما حكمت به أئمتهم، فيدخلون كرهاً تحت حكمه خوفاً من سيفه وسطوته، ورغبة فيما لديه».

الشيخ الأكبر

قالت عائشة:

- يا ولدي لقد حشدوا له شيوخهم وفقهاءهم. بَيْدَ أنَّه كان قد سبقهم في مضمار مواجهة الحجة بالحجة. غردون ومن خلفه الحكومة التركية حرضوا عليه الفقهاء لتكذيبه، وأحياناً يمليان عليهم الفتيا ليقوموا بصياغتها وإصدارها لتخذيل الأهالي وتثبيطهم.

قال لي المنتظر:

- حاول غردون في أول أمره أن يشتريني فقد كان يظن أني عبد للمال أو الجاه والمناصب مثل هؤلاء المتفيقهة الذين وظفهم لمناصرة الترك وأعوانهم. وكان قد أرسل لي رسالة مصحوبة بكسوة مع تعييني حاكماً على إقليم كردفان، فرددت عليه برسالة دعوته فيها للدخول في الإسلام وبعثت إليه بزي الدراويش رداً على كسوته، فغضب وجمع فقهاء الخرطوم وطلب منهم النصح الشرعي لتفنيد دعواي! فاستجابوا له بتدبيج الحجج الواهية والفتاوى الساقطة، وحين حاصرتُ الخرطوم عاصمة الترك خاطب غردون أمراء المهدية الذين نصحوه بالتسليم قائلاً: اعلموا أن محمد احمد الذي اتبعتموه ليس هو المهدي المنتظر على ما أثبتته النصوص الشرعية. وياللعجب، فالقسيس النصراني غردون يحتج بالنصوص الشرعية، وهؤلاء الفقهاء بقوا يقدمون له العون، ويدعمونه ويبثون الثقة في قلوب الأهالي ليتمكن غردون وجنوده من الصمود لحين ارتفاع النيل، فيستخدم الوابورات لرفع الحصار عن الخرطوم ريثما يأتي الإنجليز لنجدته. وفي رمضان طلب من هؤلاء الفقهاء إباحة الفطر للمحاصرين بسبب الحرب فأصدروا الفتيا استناداً إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة في شهر رمضان وقام غردون بنشر هذه الفتيا في جميع المراكز العسكرية ليفطر الجنود. هؤلاء الفقهاء هم ألعوبة في يد القسيس النصراني غردون يوجههم كيفما يشاء، ويملي عليهم فيمتثلون، ويأمرهم فيطيعون. ينسجون له الفتاوى ويحيكون له الحيل. باعوا دينهم بجنيهات وأردب عيش. وزع غردون محصول وحصاد جنائن الخرطوم الأميرية عليهم وطلب منهم قراءة كتاب البخاري في المساجد والتوسل إلى الله بصالح الدعاء لرفع الحصار وقطع دابر العصاة ففعلوا! وكلما استعان بهم أعانوه. فحين بدأ النجومي نشاطاً دعائياً موجهاً لأهالي الخرطوم بواسطة بعض العلماء الذين انحازوا لي لإثبات صحة دعواي وانطباق صفاتي مع ما جاء في الكتب من صفات المهدي اجتمع غردون بفقهاء الخرطوم لتفنيد كتاب النجومي بنداً بنداً فأصدروا الفتيا بتاريخ (٢٣ذي القعدة ١٣٠٢هـ) الموافق (١٤ سبتمبر ١٨٨٤م) ووقع عليها الشيخ الأمين الضرير رئيس ومميز علماء السودان، وشاكر أفندي مفتي استئناف السودان، والشيخ حسين المجيدي مدرس العلم بالجامع، ومحمد خوجلي قاضي عموم السودان، وموسى محمد مفتي مجلس السودان.

هؤلاء هم أعداء الدين يا عائشة. هم موظفون في جهاز الإفتاء والقضاء والوعظ والتعليم الديني مقابل أجر معلوم وراتب مرسوم، يخضعون للحاكم النصراني ويتبعونه. والدليل على هذا هو أن الشيخ مضوي عبد الرحمن العالم الأزهري تبعني لأنه لم يُعرف عنه أنه عمل في الوظيفة لدى الدولة التركية. ولو لم يكن هؤلاء موظفين لديها لأفتوا بغير ما أفتوا! لكن الخمسمائة قرش التي تمنح للقضاة منعتهم من الانحياز للحق. فأصبحوا ربائب السلطان العثماني وأعداء للفُقَرَاء والصوفية. ولهذا كافأتهم الدولة التركية. وكذا فعل الشيخ ميرغني قاضي تَقَلِي الذي لم يدرس في الأزهر ولم يعمل لدى الدولة التركية فقد تبعني وبايعني! أما أولئك فهم شيوخ دنيا، فشيخ العلماء في الخرطوم كان يربط له مرتب قدره خمسمائة قرش شهرياً وثلاثة أرادب من الذرة. وأما شيخ الفقهاء فله مرتب ثلاثمائة قرش شهرياً وأردبان من الذرة.

قالت عائشة فقلت له:

- لكن يقال إن الشيخ مضوي الأزهري بعدما تبعك انقلب عليك يا منتظر.

قالي لي:

- الشيخ مضوي ولد عبد الرحمن المحسي حفيد الشيخ إدريس بن محمد الأرباب - وهو الذي كسب علمه من الأزهر - حين سمع بانتصاراتي على أبي السعود في الجزيرة أبا وما يتناقله الناس عني جاء لمقابلتي وارتاب في مهديتي أول أمره، لكنه بايعني بعد ذلك وقاد جيوش الأنصار لفتح الخرطوم. أخبرني بذلك من كان معه. قالوا لي إنهم حاوروه وسألوه عني بعدما خرج عائداً من عندي فأخبرهم أنه لم ير فيَّ صفات المهدي، وأنه وجدني أخص أقاربي وخلصائي بالغنيمة دون بقية جندي، وأني سكتُّ وغضضت الطرف عما فعله أنصاري حين فتكوا بالقافلة التجارية فقتلوا التجار وسلبوا الأموال، وأن هذا عين الظلم. والشيخ مضوي حكم بما لم ير ولم يشهد. لكنه قال لمن حاوره إنه يلتمس لي الأعذار فيما لا أعلم ويلومني فيما أعلم. وكنت قد أرسلت له من يحاوره بعدما خرج من عندي فسأله عن حقيقة المهدي فقال له إن المهدي الذي يرقب هو خروجه ليس بظالم ولا يُكَفِّرُ من ينكر مهديته فالإيمان بالمهدي ليس من أركان الإسلام التي من لا يؤمن بها يكفر أو من لا يتبع المهدي يخرج من دائرة الإسلام ومضوي يحتج بالصحاح التي ذكرت نزول ابن مريم لكنها لم تذكر المهدي وأن أحاديث المهدي ليست في أعلى درجات الصحاح لكنها في الكتب الأقل ضبطاً للرواية عنده.

فقلت له:

- وكذلك الشيخ أحمد شاكر.

قال لي:

- حين ظهر أمري أفتى المفتي أحمد شاكر بأن محمد احمد ليس هو المهدي المنتظر، وسلك في تفنيد ذلك مسلكاً جردني فيه من صفات المهدوية، وذلك بنفي انطباق أوصافه ومكان مولده ومكان خروجه ووزرائه ورجاله على حالتي. وكذلك فعل المفتي أحمد الأزهري ابن الشيخ اسماعيل الولي الكردفاني الذي أفتى بأن الأحاديث التي تصف المهدي بأنه من عترة النبي أفرق الثنايا أجلى الجبهة وجهه

كالكوكب الدري، اللون لون عربي، والجسم جسم إسرائيلي، أو شاب أكحل العينين أقنى الأنف كث اللحية على خده الأيمن خال فهذه الصفات مفقودة فيَّ وأن وجود الخال في خدي الأيمن مع انتفاء الصفات الأخرى لا يكسبني صفة المهدي. وكذا المفتي شاكر يقول إن المهدي يشبه النبي في الخَلْق ويقرب منه في الخُلُق ومن ظن أن لون النبي هو لون محمد احمد الأسمر فقد انتقصه، وحُكم منتقص النبي هو الردة ولا تقبل توبته.

ويقول أيضاً إن أخلاقي لا تشبه أخلاق النبي في شيء فهي تقوم على قتل الناس واستباحة أموالهم. ويقول إني أزعم أن النبي أمرني بالهجرة إلى جبل ماسة بقدير من جبال النوبة في غرب البلاد قياساً على حديث العلقمي بأن المهدي يهاجر إلى جبل ماسة من جبال المغرب! فالحديث من رواية العلقمي لا أصل له وجبل ماسة الذي بقدير ليس هو من جبال المغرب بل هو من جبال الصعيد أي الجنوب.

والمفتي شاكر ربط ظهور المهدي بحلول بلاء عام فقال بأن الحياة في هذه البلاد طاهرة من المفاسد وتحت رعاية الخديوي الأعظم تسترغد المعيشة وهو ملجأ العامة فوجود هذا الملجأ الآمن يكذبني ويتهمني بأني أملأ الأرض خراباً وسلباً ونهباً مما لا يبشر بقسط أو عدل.

والأزهري يقول إن كنت أنا هو المنتظر فأين هي الكنوز التي تفتح على يديَّ وأين هي الجزية التي توضع وأين هو العطاء الكثير والرخاء وتوزيع المال صحاحاً بالسوية وغنى القلوب والقناعة؟ فالبلاد لم تر إعطاء السماء قطرها أو الأرض نباتها ولا غنى القلوب ولا حثو المال، بل ترى قلة الأمطار وغلاء الأسعار وتكالب الناس في الدنيا حتى يقتل بعضهم بعضاً لأجل أخذ المال فالزمان - على هذا النحو - ليس زمان المهدي المنتظر الذي يؤيد بثلاثة آلاف من الملائكة ويكون أهل الكهف من أعوانه، فأين هو ذلك وأهل هذه البلاد يتمنون أن تظفر الحكومة بي حتى تزال مفاسدي. ثم إن المهدي الحقيقي يُبَايَع وأني متمهدي يندب الناس للبيعة ويقتل من لا يبايعه وأنه لم يناد فوق رأسي ملَك حتى تصح دعواي وتستقيم.

ويقول أيضاً عن وزراء المهدي الحقيقي وأتباعه أن الشيخ محيي الدين بن عربي يصف وزراء المهدي بأنهم طائفة حباها الله تعالى في مكنون غيبه وأطلعها كشفاً وشهوداً على الحقائق وما هو إلا أمر من الله في عباده فلا يفعل المهدي شيئاً إلا بمشورتهم وهم على أقدام رجال من الصحابة الذين صدقوا الله ما دعاهم إليه وهم من الأعاجم ليس فيهم عربي ولكنهم لا يتكلمون إلا بالعربية لهم حافظ من غير جنسهم ما عصى الله قط وهو أخص الوزراء. أما وزرائي فيقول الأزهري بأنه يحصدهم سيف الحكومة فلا يمكن الادعاء بأنهم الوزراء الذين عناهم حديث ابن عربي فهم إذن من المدلسين والمدعين نتيجة تسويلات نفسية. وأني مجرد متمهدي قد تبعته جهلة العوام وأوباش الطغام. وأن المهدي الحقيقي ينسب إلى أهل البيت ويصلحه الله في ليلة أما أنا فمدع قد سلك الطريقة الخلوتية السمانية على يد الشيخ القرشي ولم يتم إصلاحي في ليلة ولا غيرها. وأن المهدي المنتظر يلتزم بالكتاب والسنة لا يخرج عليهما ويزعم بأني نبذت الكتاب والسنة لأنهما لا يبيحان الخروج على طاعة الإمام والكذب والغش والتلبيس على المسلمين وقتلهم بلا حق والشرع لا يبيح قتل الكافر والمؤمن والمعاهد ولا نهب ماله.

ويزعم المفتي شاكر بأني أذيع عن النبي صلى الله عليه وسلم بأن المنكر في مهديتي كافر وخارج عن الدين، وأني إذا أردت بالكفر تغطية الحق بالباطل فلا يحصل إلا إذا اتضحت دلائل تصديقه، وهذا ما لم يحدث. وإذا أردت بذلك الخروج عن الإيمان فهذا خطل لأن المهدية ليست نبوة ولا رسالة، وغايتها خلافة. فإنكار أصل المهدية والشك فيها لا يوجب كفراً بمعنى الخروج عن الإسلام.

ويقول بأن النظام التركي القائم في بلادنا يستمد شرعيته من استظلاله بمباركة ورعاية خليفة المسلمين العثماني وحتى لو كان السلطان جائراً فالصبر على طاعة الجائر أولى من الخروج عليه لما فيه من استبدال الخوف بالأمن وإهراق الدماء وشن الغارات والفساد وذلك أعظم من الصبر على جوره وفسقه والأصول تشهد والعقل والدين أن أقوى المكروهين أولى بالترك.

- وفي هذا قلت للشيخ مضوي زعم علماء السلطان أن ما أفعله الآن هو خروج على السلطان وتمرد على النهج السني ويرون أن لحكومة الأتراك فضلاً على أهل بلادنا بأنها ربتهم فوق مهد عدلها وأدارت عليهم وافر فضلها، وخلصتهم من ملوكهم الأولين الذين اتخذوهم عبيداً وخولاً وأنها عمرت بلادهم وأمنت أوطانهم وكثرت زراعتهم بعد أن كانت بلادهم بغاية الخراب والبوار وأموالهم وذراريهم للنهب والإسار لا يملكون خطيراً ولا حقيراً، وأنهم بعد مجيء الترك صاروا بفضل سياستها في غاية الأمن والعمار وكثرة الغنى واليسار وأن حكومة الترك تنفق على عمار البلاد وحفظ حياة الناس من خزائنها العامرة وأن ما تأخذه منهم من المطالب الأميرية ينفق مع زيادة عليه في مصالح البلاد الضرورية.

أولا يعلم علماء السلطان أن الأتراك كانوا أشد إجراما من الخطر البرتغالي الذي كان يهدد البلاد؟ ألم يفرضوا الضرائب الباهظة، ويسلبوا الممتلكات، ويحرقوا القرى بأكملها ويحولوا الموانئ إلى ثكنات عسكرية، وبعدما قضوا على كل شيء تحولوا إلى نخاسين يبيعون الأطفال والنساء والرجال، يصفونهم بالبرابرة ويبيعونهم في أسواق العبيد؟

ألم تقم هذه الدولة العثمانية بتولي إدارة الجمارك، وجباية الضرائب التي شملت الأرض والبهائم والتجارة دون تقديم خدمات.وحين كسدت التجارة وانتشرت الأمراض في المنطقة وعانت البلاد من الفقر الشديد، وضرب الطاعون المنطقة، هل كان لدى الأتراك أي نظام صحي لمساعدة السكان؟ ألم يتركوا أهلنا ليلاقوا حتفهم؟ ألم يسمح العثمانيون للأجانب بالتدخل في شؤون بلادنا تحت مظلة سياسة الامتيازات؟ ألم يعمد الخديوي إسماعيل إلى تغيير النظام الإداري ويسمح للإنجليزي صمويل بيكر أن يخضع له حوض ومنابع النيل مقابل مرتب سنوي كبير؟ ألم يفتحوا الباب على مصراعيه لدخول الإنجليز إلى السودان الذين كثرت أعدادهم مسؤولين وموظفين في دولة الترك في بلادنا؟

وبعد هذا كله يأتي الأزهري ليؤلف رسالة يحشد فيها تأييده للترك الظلمة فيحظر الخروج عليهم ويفتي بأن الإمام لا يُعزل ولا تنبذ بيعته ولا يطرح عهده إلا إذا أمر أحداً أن يكفر أو كفر الإمام نفسه ومادام لم يكفر ولم يكفر أحداً فالطاعة له واجبة ولو زالت عنه العدالة واتصف بالفسق. ويأمرنا بالسمع والطاعة وإن ولي علينا عبد حبشي ونسمع ونطيع وإن ضرب ظهرنا وأخذ أموالنا. فهذا المفتي شاكر يمنح السلطان حقاً إلهياً فيجعل الدين والسلطان متلازمين وأن الدين هو الأساس والسلطان هو حافظه ومشيده ومالا حافظ له ضائع يعز تأييده ولا دين إلا بالسلطان فهو القائم بحماية

الدين وحفظ بلاد المسلمين وهو ظل الله في أرضه وبه تقام شعائر سنته وفرضه فهو خليفته على خلقه وأمينه على رعاية حقه. وأن الإمام – السلطان العثماني – موجود ودولته منتظمة مؤيدة بوزرائه ويُخطب له بالنصر في المنابر وبيعته يجتمع عليها أهل الحل والعقد فالذي يخرج عن طاعته باغ ومتحدٍّ لله ورسوله وساع في الأرض بالفساد فتجوز مقاتلته ورده عما هو عليه وإقامة حد الشريعة فيه.

أما أنا محمد احمد المهدي فقد أُمِرت بالخروج على الأتراك الظلمة وفق رؤيا شهدت فيها النبي صلى الله عليه وسلم وقد طوقني بالمهدية. وأما علماء السلطان فقد قالوا في حكم الرؤيا أنه لا يصح لي العمل بأمر الرؤيا حيث كان الأمر يخالف حكم الشرع من خروج عن طاعة الإمام ونبذ عهده وطرح بيعته فضلاً عن أن خروجي يؤدي إلى إيذاء المسلمين في النفس والمال. فهم يقولون إذا رأى رجل رسول الله في المنام يأمره بطلاق زوجته فليس ملزماً بذلك لعدم ضبط النائم وإن كان الشيطان لا يتمثل برسول الله في النوم ذلك إذا تيقن النائم أنه رأى الرسول على الحقيقة علماً بأن القلم مرفوع عن النائم حتى يستيقظ فمهما رأى في النوم يبقى رؤيا ليس فيها شرع بعد النبي صلى الله عليه وسلم. وأن أساليب الكشف هي طريق الصوفية في الإلهام والمعرفة اليقينية حيث لا تقوم بها حجة ولا تنعقد بيها بينة ولا يصح العمل بها لأنها مخالفة للشرع فالولي عند العلماء يناط به حكم الظاهر فكيف إذا ارتكب أمراً مخالفاً لظاهر الشرع يتبع؟ خصوصاً إن أدى إلى سفك دماء المسلمين وإتلاف أموالهم. فأكابر الصوفية يقسمون الكشف أقساماً بعضها خيالي فلا ينبغي الاهتداء بالكشف والحال هكذا حين يدعو الكشف إلى خرق الشرع وإضرار المسلمين.

فهؤلاء المفتون والفقهاء ممن أدخل الله في قلوبهم النفاق بحب المال والجاه. قال ﷺ: حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل. ولا يخفى أن هؤلاء العلماء ينكرون كثيراً من أمور المهدي لأنه ليس على معتقدهم الذي يظنونه ولأنه يخالف مذاهبهم. والتصديق بأمر المهدي صعب لا يتوفق إلا من أدركه بسابق سعادة لأنه لا يهتدي إلى معرفة حقيقته إلا الأولياء العارفون الذين لم يُحجبوا عن رؤية نبيهم ﷺ فلمهديتي من الله دلائل فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وقال محيي الدين بن عربي في تفسيره على القرآن العظيم: عِلْمُ المهدي كعلم الساعة والساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة إلا الله وقال الشيخ أحمد بن إدريس: كَذَبَتْ في المَهدي أربع عشرة نسخةً من نسخ أهل الله. ثم قال: يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونه فحقيقة مهديتي على ما هي عليه لا يعرفها إلا أهل المشاهدة والبصائر

ولا يهتدي إليها إلا الأولياء والعارفون الذين لم يحجبوا عن رؤية نبيهم.

إن أكبر الأدلة على أن هؤلاء المفتين هم أهل دنيا هو أنه عندما أعلن غردون في بربر أنه جاء ليسحب قواته آثر هؤلاء المتفيقهة أن يغيروا ولاءهم ويتبعوني ومن هؤلاء الشيخ محمد الخير أستاذي وشيخي الذي كان يتقاضى من الحكومة راتباً شهرياً وشيئاً من الحبوب ولذلك تردد في دعوتي له بالحضور لكن حين تبين له خذلان الحكومة اتصل بحسين باشا خليفة حاكم بربر وأطلعه على عزمه الهجرة إليَّ وقال له: إن الحكومة أقرت إخلاء البلاد فأي خير لنا في البقاء معها؟ ما الذي نقوله للمهدي بعد ذهابها واحتلاله مكانها؟. وكذلك فعل عبد القادر قاضي الكلاكلة الذي نادى بالمهدية

وحاصر الخرطوم من جهة بحر ابيض بعدما كان قد صحب ستيوارت باشا في الباخرة التي أرسلها غردون، وعندما وصلت مدينة أبوسعد القريبة من الخرطوم أدرك كثير من هؤلاء خطورة الثبات على ولائهم للحكم التركي فاتفقوا ومعهم كبار الموظفين على مكاتبتي يعلنون اتباعهم لي وأنهم سيبذلون الجهود من داخل الخرطوم لإضعاف الحكومة ويتحينون الفرص للانضمام إليَّ خارج الخرطوم وأرسلوا مع كتابهم مبلغاً من المال لفقراء جيشي. لكن غردون كشف أمر الخطاب فقبض على المشاركين في تحريره وتوقيعه وهم أحمد بك جلاب مدير الخرطوم والشيخ محمد خوجلي قاضي عموم السودان والفضل إبراهيم باشكاتب مجلس الاستئناف وأبوبكر الجركوك عضو مجلس الاستئناف والخليفة ولد أرباب من أرباب المعاشات والفكي الأمين البشير الضرير شيخ الإسلام والتاجر محمد عبد الرحمن البشير وادريس بك النور عضو مجلس الاستئناف. غردون استجوبهم ثم حبسهم في ثكنة العساكر واعتقل المدير وأخاه والقاضي وشيخ الإسلام في منازلهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



في شان الله

قال جدي:

- طال حصار الأنصار للخرطوم حتى بلغت قلوب أهلها الحناجر، ثم جاء الجنرال غردون من صوب مصر فمنحهم وصوله بارقة أمل وأقاموا له الاحتفالات واعتبروه المخلص الذي طال انتظاره لينقذهم من هذا المجنون محمد احمد. وحين رأى الجنرال هذا الحفل تحمس وصدق أنه المنقذ لأهل الخرطوم. لكن مهمته كانت صعبة عسيرة فالخرطوم مليئة بأتباع محمد احمد، يعملون له سراً ويقومون بالتخريب من داخل الخرطوم. وما زرعه في قلوب الناس لا يمكن إيقافه بالتخويف فقد زرع فيهم الأمل ووعدهم بثورة تملأ العالم كله وتبدأ من هذه البلاد. ووعدهم بدخول الخرطوم وبالنصر على الترك. وأكدت لهم انتصاراته المتوالية على جيوش الأتراك صدق مهديته فجاءوا جميعهم وبايعوه. لقد بلغوا في تصديقه أنهم استبدلوا اسم النبي باسم المهدي في المدائح والصلوات. جواسيس غردون أخبروه أن المهدي نفسه أقر هذا وقال لهم إن زمانه هو زمان نهاية العالم وأنه جاء بين يدي الساعة.

فرح أهل الخرطوم بمجيء غردون لأنه كان انجليزياً مما أكد لهم أن الحملة الإنجليزية قادمة ولولا ذلك لما بقي شخص واحد في الخرطوم ليواجه جيوش المهدي. وصول غردون كان هو الشيء الوحيد الذي أخر الهرب. لكن العارفين أصيبوا بالإحباط حين جاء غردون بمفرده دون جيش يسنده ويقويه. وغردون كان كمن يحاول إطفاء حريق ضخم بحفنة ماء يحملها في يده وتتسرب من خَلَلِ أصابعه.

كان غردون يعلم أن الحكومة التركية ومن ورائها الحكم الإنجليزي قد تخلوا عن السودان وأن مهمته هي سحب الحاميات فأخبر حاكم بربر بهذا حين كان في الطريق وأخبر أمير المتمة بنفس ما أخبر به أمير بربر. وكان هذا خطأً قاتلاً. فقد شجعت هذه المعلومات جميع المترددين فأعلنوا ولاءهم للمهدي. وأدى ذلك إلى أن تسقط بربر في أيدي أنصار المهدي فتقطع طريق العودة على غردون. حدث ذلك حين تجمع الجعليون من المتمة والعبابدة بقيادة محمد الخير فحاصروا بربر وانضم إليهم كثير من سكانها الذين لم يستمعوا لشيخ العبابدة حسين باشا خليفة الذي بقي وفياً للحكومة. وبعد ثمانية أيام من الحصار تم اقتحام المدينة وقتل معظم أفراد الحامية وعدد من السكان.

محمد ود البصير شيخ الأبيض وأولاده والفكي مضوي عبد الرحمن زحفوا على الخرطوم من جهة الجنوب وهزموا قوات غردون المتمركزة جنوباً. غردون أعدم قادة جيشه الذين جاءوا هاربين من جهة الجنوب بتهمة الخيانة. بعض قيادات غردون بدأوا يستسلمون. القائد صالح ومعه ألف وأربعمائة مقاتل استسلموا للأمير أبوقرجة مما شجع كثيرين على الانضمام لجيوش المهدي. أبوقرجة استولى على بُرِّي القريبة من الخرطوم وبنى طابية فيها وبدأ في قصف الخرطوم.

غردون استخدم كل طاقته وتكتيكاته الحربية للصمود في الخرطوم واجتهد في إبعاد قوات الأنصار بعيدة عن أسوار ها. لكن المهدي تحرك من الرهد صوب الخرطوم. جاء بجيوشه في موسم الخريف والأمطار وتبعته حشود ضخمة مهولة. الجيوش سلكت طرقاً غير معهودة. يوم تحرك المهدي تبعه

أكثر من مائتي ألف جندي. وفي شركيلا بلغ عدد الفرسان أربعة آلاف. جيوش المهدي ساقت في طريقها أعداداً كبيرة من المواشي للطعام وبذلك أصبح اللحم رخيصاً وفي متناول أيدي الجيش، فترى عظام الجمال والحمير والجياد والثيران وراء الجيش علامات تدل على خط سيره من شركيلا إلى شات ثم الدويم. الناس تركوا الزراعة والعمل في الحقول ولحقوا بالجيش الزاحف نحو الخرطوم. والمهدي وصل أُمْ دُرْمَان في الثالث والعشرين من أكتوبر.

في الخريف كان النيل قد فاض فيضانا عظيما فالأزرق ارتفع منسوبه بينما الأبيض تجاوزت مياهه طابية المقرن ووصلت منازل الخرطوم. أمر غردون ببناء سد لحجز الماء في حدود النهر. وشجعه ارتفاع مناسيب النيل الأزرق في الخريف على شن هجمات نهرية فأرسل قائداً اسمه محمد علي باشا إلى منطقة قريبة من الجريف ثم عاد فهاجم الحلفاية واستولى على كميات من الذرة والماشية. هذه الانتصارات أعادت الأمل للخرطوم فكانت الفرق الموسيقية تعزف ألحانها في الأمسيات وبدأ الشباب يتجمعون على أنغامها. لكنها كانت فترة فرح قليلة لأهل الخرطوم. ولم تثبط تلك الإنتصارات من عزيمة الأنصار، وقد وصلهم منشور المهدي ووصيته لهم ألا يخشوا بأس الكفار، ولو جاءوا بعدد الأحجار، وقطر الأمطار، وورق الأشجار قال لهم: »لو أن المهدي كان معه أربعة ناس أو خمسة أو ستة أو واحد فالله ناصره وحافظه وإن الدين منصور«.

محمد علي باشا شجعته مناوشاته الناجحة على المواصلة فزحف على جيوش الشيخ العبيد ود بدر بالقرب من العيلفون فتراجع الشيخ تراجعاً تكتيكياً مما جعل محمد علي باشا يتوغل مطارداً تلك القوات لكنه وقع في كمين وأبيدت قواته عن بكرة أبيها وكان عددهم ثمانمائة مقاتل فكانت هزيمة موجعة لغردون. وبعد هذه الهزيمة اكتمل الحصار على الخرطوم من جميع الجهات.

قرر غردون إرسال الباخرة عباس إلى مصر لإطلاع الحكومة على الموقف. وكان يعتقد أن تلك الباخرة لن تواجه أية مصاعب في الطريق إلى دنقلا خاصة وأن منسوب النيل عالٍ. الباخرة عباس رافقتها باخرتان صغيرتان لسحب القوارب هما المنصورة وصافية. التجار الإغريق كانوا هاربين في إحدى تلك البواخر وفي الأخرى تجار سوريون. لكن رجلاً واحداً من أنصار المهدي صمد لها ببندقية وهي في طريقها إلى بربر، فاضطرت المنصورة وصافية إلى العودة وعلى متنها جميع التجار ولاحقها هذا الرجل بنيران بندقيته وهي في طريق العودة أيضاً وكان قناصاً ماهراً فأخذ يصطادهم كالجرذان بينما واصلت الباخرة عباس رحلتها شمالاً.

النساء سرن مع المجاهدين يوقدن النار ويطبخن الطعام. غير أن كثيرين كان زادهم التمر وبليلة الدخن أو العيش. وآخرون ربطوا بطونهم وتحزموا. والجموع المنحدرة حاصرت الخرطوم من محاورها الثلاثة فعزلتها عمن حولها وما حولها. الطرق البرية والبحرية التي تربط البلاد بالعالم باتت مغلقة فلا مفر ولا مهرب. الأنصار دخلوا الأرياف المجاورة فقد دخلوا أم ضبان والجريف شرق والجزيرة اسلانج شمالاً والكلاكلة وأبو سعد جنوباً جاءوا مصممين على الاستيلاء على عاصمة الترك طوعاً أو كرهاً، سلماً أو حرباً استسلاماً وتسليماً أو بدخولها قسراً وعنوة واقتدارا. الجيوش محتشدة في جميع الجهات. ملأت السهول التي حول الخرطوم وأحاطت بها. الراجلون لابسو الجبب المرقعة والعمائم الخضراء يثيرون الغبار فيملأ الأفق والفرسان يخطرون بخيلهم أمام الصفوف. وحاملو الحراب يضربون بكعوبها الأرض.

لكن الخرطوم موقعها حصين والجنرال غردون زاد من تحصيناتها فبنى حائطا حول المدينة بثلاث بوابات بوابة الكلاكلة وبوابة المسلمية وبوابة بري، ووضع عليها مراكز نيران لصد أي هجوم على المدينة وحفر خندقاً عرضه اثنا عشر متراً يربط بين النيلين الأزرق والأبيض، وزرع بداخله نطاقاً من الألغام ضد الأفراد لتأخير وصد القوات المهاجمة مع مواقع غرست فيها الضريسة بعناية فائقة وهي قطع حديدية من ثلاثه رؤوس ذات أسنان حادة. واستنفر القوات للدفاع عن الخرطوم فبلغت جملة قواته خمس أورطات من الجنود النظاميين وأعداداً من مقاتلي الجنوب والباشبوزق والشايقية والأتراك.

تم إحكام الحصار وتضييق الخناق على الخرطوم وأرسل المهدي خطاباً لغردون يطلب منه التسليم فرفض طلب المهدي لكن المؤن في الخرطوم نفدت. فقام غردون بترحيل النساء وكبار السن والأطفال لأمْ دُرْمَان وفي ذلك الحين ترامت الأنباء للمهدي بأن الإنجليز أرسلوا حملة إنقاذ لغردون فأصدر المهدي أمره باقتحام الخرطوم.

كان الليل في هزيعه الأخير. وحين أمروا بالتوقف وقفوا متحفزين. يتقدم قائدهم أمام الصفوف التي أدت صلاة الفجر خلفه وهي في هيئة القتال. الجموع قرأت راتب الإمام المهدي كل من موقعه، وبصوت واحد يخلع القلوب، ثم ارتفعت الحناجر تلهج بالذكر والثناء على الله، والكل يطمع في أجر حجة وعمرة تامتين تامتين.

حتى إذا أشرقت قاموا فصلوا صلاة الإشراق والأيدي قابضة على السلاح والأعين لا تغفل عن مراقبة وجهتها. هناك حيث القصر والكافر غردون عدو الله! مسبحاتهم المنظومة حباتها من اللالوب تتدلى من أعناقهم فوق صدورهم تمثل كل حبة منها اسماً من أسماء الله الحسنى تحرس خطواتهم الواثقة، وواسطة العقد لتلك المسابح مئذنة ترمز للفجر الصادق، فجر المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. والمنتظر يوصيهم وكلماته الأخيرة تتجلجل في أسماعهم وهم يتهيأون للركض تجاه أسوار الخرطوم ليتسوروها:

إذا فتح الله عليكم، فغردون لا تقتلوه، و الشيخ حسين المجيدي لا تقتلوه والفقيه الامين الضرير لا تقتلوه والشيخ الخراساني لا تقتلوه. ومن رمي سلاحه لا تقتلوه ومن أغلق عليه بيته لا تقتلوه. ويرتفع صوت من بين الجموع:

- يا سيدنا في بعض الجردات التي قاتلناها رأينا العسكري يرمي سلاحه فإذا تعديناه أخذ سلاحه من الأرض يرمينا أو يضربنا به. فقال محمد احمد بعد أن سمع كلامه:

- الذي تجدونه في خط النار اقتلوه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

ليلة السقوط

قال جدك:

- كانت عائشة تتجنب الحديث عن ذلك اليوم الذي دخل فيه الأنصار الخرطوم. لكني لما ألححت عليها غطت وجهها ثم انطلقت تحدثني. وكنت أعلم أنها كانت تبكي وهي تحدثني لكنها أرادت أن تخفي ذلك عني. ثم لما استفاضت في الحديث وجدت لها العذر في البكاء بل شاركتها فيه فقد كنت صبياً لا تمتنع دموعه حين يسمع تلك المآسي التي جرت. قالت لي:

في ذلك اليوم احتشدت الرايات والأعلام تزحم الآفاق، وأناشيد الحماسة تجاوبها صيحات الحرب من حناجر الرجال، مدوية في السماء، مختلطة بصهيل الخيل وحمحمتها. لا توجد مقدمة أو مؤخرة لهذا البنيان المرصوص من الأجساد المتأهبة للقتال، فالجميع في المقدمة يتسابقون لنيل الشهادة. أنى نظرت فلن تَرَ مَدَّ البصر إلا رايات التعايشي الزرقاء، ورايات علي وَدْ حلو الخضراء، ورايات محمد شريف الحمراء، سامقة ترفرف حول سماء الخرطوم، تزاحمها الرماح المشرعة، والسيوف البراقة، والبنادق في أيدي الصناديد وفوهاتها مصوبة جهة العدو.

من هناك جاءوا من البعيد، ينشدون الأهازيج والأراجيز فتحملهم على الطريق، وتطير بهم أشواق النصر محلقة في فضاء الذكر بأجنحة الوجد والشوق للشهادة، والحناجر الملتهبة لا تكف ولا تفتر مرددة في حُمَّى المسير: الدااايم دايم الله، دااايم كريم الله. فتجاوبها الفيالق بأصواتها الهادرة: دايم دايم الله نحن نموت والحي الله.

قبائل بأكملها جاءت لتلحق بالزحف، رجالاً ونساء وأطفالاً. قرى أغلقت ومزارع هجرت، فأهلها جاءوا بحصادهم وماشيتهم وأبقارهم وحلالهم وراء المهدي المنصور، والجميع اتجه نحو عاصمة الترك. لا عذر لأحد في التخلف. أنى اتجهت طالعتك وجوه الرجال الصناديد. لا يتوقف أحدهم لإعادة لبس نعله الذي انخلع من أقدامه المتشوقة للسير إلى الأمام واللحاق بجيش الإمام فهناك الجنة يرونها رأي العين. لن يتخلف أحدهم عن الصفوف إلا جثة بلا روح. الآلاف يسيرون حفاة بلا نعلين، فأقدامهم حفيت من طول الطريق. لا ظل من الشمس الحارقة إلا العمائم فوق رءوس الرجال المقاتلين. الوجوه صارمة القسمات أنضجتها الحرارة، فأصبحت وجوه أسود متأهبة للانقضاض على الفرائس. أنصار الإمام يتلمظون تلمظ الأفاعي والحيات يتشوقون لحصد رؤوس الكفار ويندفعون إلى الأمام في شان الله.

من ترك مزرعته التي آن أوان حصادها أيقن أنه ذاهب إلى مزرعة خير منها في الجنة، ومن ترك زوجته بلا مرافق فقد ودعها واستودعها الله فهو كفيل بها. وإن اختاره الله شهيداً فسوف يقابلها في الجنة مع الحور المقصورات في الخيام، لكنه مهما حدث فلن يتخلف عن ركب المنتظر فالجهاد فريضة والله أكبر ولله الحمد.

ها هي أخبار هزيمة هكس باشا في شيكان قد خلعت قلوب أهل الخرطوم وملأتها رعباً. وها هي الفوضى قد عمت الأرجاء، فالتجار خائفون على تجارتهم، وبعضهم حزموا أشياءهم وطاروا طيراناً صوب مصر. البعثة النمساوية جمعت أغراضها وعبيدها وغادرت الخرطوم على متن قارب سريع.

قالت عائشة إن بعض نساء الخرطوم اللائي كن بالمدينة ليلة السقوط أخبرنها بما حدث تلك الليلة فقد اجتاحت المدينة كلها سحابة من الخوف والهلع في ذلك اليوم. سكانها أغلقوا الأبواب الخشبية الضخمة، لكنهم لم يحسوا بالأمن ولا الطمأنينة رغم الجدران العالية والأسوار العصية التي يصعب على المعتدين تسلقها. كانوا يعلمون أنها مسألة وقت قبل أن تسقط في أيدي القادمين. كثيرون خرجوا منها وغادروها قبل وصول الجيوش التي حاصرتها من جميع الجهات. لم يبق فيها في ذلك اليوم إلا الأقليات من الشوام والأغاريق والشركس، فمعظمهم حاول الهرب لكن السلاح الناري الكثيف على ضفتي النيل أجبر بواخرهم على العودة منقلبة على أعقابها فبقوا في الخرطوم ينتظرون مصائرهم.

ستون ألف مقاتل قادهم الأمير ود النجومي انتشر عشرون ألفاً منهم في مواجهة الدفاع وتسللت باقي القوة عبر فتحة ضيقة عرضها خمسمائة ياردة، وانقسمت القوات قسمين الأول مهمته إبادة جند الحكومة من الخلف والقسم الثاني يشن هجوماً مباشراً على السراي حيث مقر قيادة غردون.

كان الاقتحام فجر الإثنين السادس والعشرين من يناير عام خمسة وثمانين وثمانمائة وألف. عند الفجر انطلقت جموع الأنصار الغاضبة في شوارع الخرطوم وشعارها الله أكبر ولله الحمد. الرماح مشرعة والسيوف مصلتة والبنادق موجهة إلى الأمام. وعند الضحى انكسرت المقاومة وسقطت الخرطوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توجيهات الخليفة التعايشي كانت حاسمة: »ابدأوا بالشيوخ المنافقين ولا تأخذكم بهم رحمة. اليوم يوم الملحمة». الخرطوم شهدت في ذلك الصباح ملحمة لا تنسى.

الذين قصدوا السراي كانت لديهم تعليمات من المنتظر: «لا تقتلوا غردون واقبضوا عليه فالمنتظر يريده لأمر ما». وآخرون كانت معهم أوامر مغايرة من الخليفة التعايشي نفسه فقد قال لهم: «إذا لقيتم الخواجة الكافر غردون فاقتلوه».

وآخرون كانت معهم أوامر مغايرة من الخليفة التعايشي نفسه فقد قال لهم: «إذا لقيتم الخواجة الكافر غردون فاقتلوه».

أحد الجنود كان مع الأمير ودنوباوي، ولما وصل السرايا كان من أوائل الداخلين. قال:

- دخلنا فلقينا غردون في غرفته، ولما شافنا وقف طوله وكان لابساً بذلته كاملة وعليها جميع نياشينه وسيفه معلق ومسدسه في حزامه وكان شَجِيعْ شجاعاً مَا مَدَّ يده على السيف ولا المسدس. لما وصلناه سَألَنَا بهدوء قال: »محمد احمد وين؟»

كانت الأوامر من المنتظر أن نقبض على غردون فتقدمنا نحوه لنمسك به ونربطه لكن أحد الجنود الذين دخلوا لم يكن من مجموعتنا اسمه شَطَّة سبقنا إليه وطعنه بالحربة في صفحته. غردون وقع وما مات لكنه كان ينزف. انتهره الأمير ودنوباوي قائلاً:

- المنتظر وصَّى قال ما تكْتلوه.

فرد عليه شَطَّة:

- لكن الخليفة قال اكْتلوه!

ولما قال هذا الكلام سكت الجميع وتقدم الأمير ودنوباوي فسحب غردون من رجليه وقطع رأسه ثم أمر شَطَّة أن يأخذ الرأس ويذهب به للخليفة فلف الرأس في قماش وحمله وخرج وتبعه جمع غفير. وفي الطريق مر على معتقل الأسير النمساوي ردولف كارلفون سلاطين والألماني شنتزر وبقية الأسرى من الأوروبيين ليرعبهم بهذا الرأس المقطوع، قبل أن يذهب به للخليفة التعايشي.

قال الجندي المتحدث:

- الأصفر كان شَجِيع بِالحيل أي فائق الشجاعة وكان مبتسماً ابتسامة عريضة.

بعدما روت عائشة هذه الحكاية صمتت طويلاً ثم قالت:

- غردون كان قسيساً.

قلت لها:

- ولماذا أراد المهدي الإبقاء عليه؟

قالت:

- كان يريد أن يساوم به الإنجليز. وكان يعرف قدر غردون. فقد جاء غردون لبلادنا هذه مرتين: المرة الأولى كان الحكام فيها من الاوربيين الموظفين مثل استانلي بيكر حاكم السودان وشنتزر وفردريك روسي الألمانيين وجسي ومسيداليا الإيطاليين وغيرهم. والخديوي تعاقد مع غردون لإصلاح البلد وغردون كان شجاعاً ومتديناً ويكره الظلم وتجارة الرق. ولكي يتفرغ لمحاربة تجارة الرق رفض مرتب استانلي بيكر الذي كان عشرة ألف جنيه استرليني في السنة واقتنع بألفىجنيه فقط وكان يصرف الكثير منها فيالأمور الخيرية. وكان يطوف كل السودان ينظر في الشكاوي وكان له في كل بلدة صندوق شكاوي وحارب تجارة الرقيق وحرر كثيرين. وكان يسافر في بعض الأحيان وحده دون حراسة وعلى جمله. ياولدي غردون كان أرق قلباً من كثير من الأنصار الذين دخلوا الخرطوم. كنت في ذلك اليوم مع صديقتي نفيسة بنت أحمد المليجي وشاهدنا والدها وإخوتها الأربعة مرفوعين على أسنة الرماح في ذلك الصباح يوم دخل الأنصار الخرطوم.

صمتت بعد هذا مدة ثم قالت:

- الفترة التي جاء فيها غردون خلفاً لصموئيل بيكر كان يريد أن ينشر العدل ويوقف المواطنين بواسطة حكامهم من أولاد البلد الذين استعملوا الكرباج بشدة ونهبوا الخلق. غردون كان يحاول أن يعطي الناس قدوة حسنة فكان لا يسمح بالنهب وكان يدفع ثمن ما يأكله جنوده ويدفع أجر الجمال التي يستخدمها على عكس الآخرين. وعندما أعجب غردون بجمل جورجس ميخائيل في الأبيض شقيق يوسف ميخائيل المقدم ملازم الخليفة عبدالله سعى ليشتريه فالجملكان مشهوراً اشتراه غردون منه بستين ريالاً وكان هذا أكثر من ثمن عبد شاب قوي فكانت البنات يغنين قائلات:

جمل جورجس ابغوفه / افتحولي الباب اشوفا

ستين ريال دقوها في المخلوفه

وهذا أمر غير معتاد، فأن يساوم حاكم السودان ليشتري جملا من مواطن وكان في مقدوره الحصول عليه بلا ثمن، يحسب لغردون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال جدي:

- غردون لم يقتله ودنوباوي وإنما قتله جندي كان يعمل لحساب مكتب المخابرات البريطانية حتى لا يقع في يد المهدي ويساوم به الامبراطورية. والذي طعن غردون بالحربة كان مندساً وسط الأنصار ولا يعرفونه وقال الناس فيما بعد إن ودنوباوي هو الذي قتل غردون وذلك لم يحدث لكنه هو الذي أجهز على غردون وقطع رأسه بعدما سقط غردون صريعاً.

قال أبي قلت لجدك:

- معقول الإنجليز قتلوا صاحبهم؟

قال لي:

- ياولدي هي الحرب! ومكتب المخابرات البريطاني يعرف أين هي مصلحة بلده. ومثلما حدث هذا من البريطانيين فقد حدث من جانب الأنصار الذين لم يسمعوا كلام المنتظر ولم ينفذوا تعليماته وكنا صبياناً شجعاناً لا نهاب فتبعنا هؤلاء الأنصار الذين دخلوا الخرطوم لنرى ماذا سيفعلون فبعدما أكملوا اقتحام القصر وقتلوا غردون حملهم الحماس عل قتل عملاء الأتراك فاتجهت جموعهم جنوباً وكان أول الشيوخ الضحايا هو الشيخ حسن المجيدي الذي كان قد أصدر بياناً ببطلان مهدية محمد احمد بعد أن نصحه قبل ذلك بترك ادعاء المهدية. كان الأهالي يحترمونه وكذلك فعلت الحكومة فهو من بيت شريف ذي نسب هاشمي. المجيدي كان مشهوراً بعمامته الخضراء فهو فقيه أزهري. وقد بقي في بيته في ذلك الصباح ولم يغادره لكن الأنصار تسوروا عليه سور بيته فوجدوه يقرأ القرآن الكريم في مصلاه فضربوه في يده اليمنى التي كان يكتب بها الفتيا فقطعوها فقال مرحباً بأمر الله فردوا عليه: يا كافر فقال: لا فإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أن محمدا رسول الله. فاعتدوا على زوجته وابنته وقالوا له إن كل من لا يؤمن بالمهدي كافر ماله وعرضه حلال فقال ينتقم الله لنا منكم يوم القيامة إن شاء الله لكنهم لم يستمعوا له فقتلوه وأخذوا زوجته وابنته.

ولما خرجوا من بيته صاح صائح:

- المنافق الخراساني!

فانطلقت الجموع صوب بيت الشيخ عبد الرحمن الخراساني الذي جاء إلى هذه البلاد مع أبيه هرباً من بطش الشيعة وسكن الخرطوم وكان مدرساً للفقه. في ذلك الصباح تجمع الناس في بيته فقد كانوا موقنين أنه لمكانته الدينية لن يتجرأ الأنصار على اقتحام مسيده لكن الأنصار دخلوا عليهم وقتلوهم عن آخرهم و قتلوا الشيخ الخراساني معهم.

وكلما سفكوا من الدماء ازداد حماسهم وعلا صخبهم فذهبوا صوب بيت الشيخ موسى مفتي المحاكم الشرعية وهو من أكابر أهل الفقه وأصوله على المذاهب الأربعة فقتلوه واحتزوا رأسه وسبوا نساءه

وبناته وقتلوا جميع أبنائه سوى ولده الحسن الذي كان غائبا فقد كان طالبا في الأزهر الشريف. ثم توجهوا صوب الشيخ شاكر مفتي الديار السودانية فأسروه هو وولديه و نساءه وبناته وطالب به محمد الفضل ود نوباوي لأنه أفتى ضده قبل عشرين عاماً في قضية نهب بهائم فقام بقتل ابنيه أمامه أولاً تشفيا فتبسم الشيخ فغضب ود نوباوي و سأله لماذا تتبسم فقال له هم في الجنة لأنهم لم يصيبوا دما حراماً و لا زال العبد في فسحة من دينه إذا لم يصب الدم الحرام أما أنت ففي جهنم إن شاء الله فغضب ود نوباوي وقطع رأسه وسبى نساءه و بناته. ثم انطلقت الجموع الغاضبة إلى بيت الشيخ محمد حتيك قاضي قضاة السودان فقتلوه في بيته وكان صائماً فقال لأبنائه قبل أن يقتلوه أرجو أن أفطر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كنت مكذباً لهذا الدجال وعدواً له ولأتباع الشيطان. ثم ذهبوا فقتلوا الشيخ محمد بن فايد الذي كان شيخ السجادة الأحمدية وشيخاً للختمية أيضاً وقد لاذ به المسيحيون والأوروبيون من أهالي الخرطوم فخرج هو وتلاميذه أمام مسيده وحمل سلاحه وأمر تلاميذه بالذكر والتهليل حتى قتل. أما الشيخ محمد الأمين الضرير فكان المهدي قد خاطبه ثلاث مرات فلم يجب دعوته و حين قبضوا عليه أخذه ولده وكان من أتباع المهدي وأراد أن يضرب عنقه تقرباً للمهدي وشاهده الخليفة شريف فدفع فرسه نحوه وقال لا يمس الضرير أحد إلا قتلته وأمر أبوقرجه أن يذهب به لبيته فدخل عليه التعايشي وسبه سباً قبيحاً وقال له إن كل علمه من كتب الدين لا يساوي شيئا لأن المهدية نسخت كل ما قبلها وأنه لا بد أن يتعلم شريعة صاحب الزمان المهدي وأنكم تقولون أحاديث عن الرسول بأسانيد قال فلان وحدثنا فلان ولكن نحن يحدثنا الرسول مباشرة عن طريق المهدي عليه السلام. ثم نادى عبداً من عبيده وقال للضرير منذ اليوم هذا العبد شيخك ومرشدك في المهدية، فلم يرد عليه الضرير وحين خرج قال اللهم اقبضني إليك غير مفتون ولا مهان فمات بعد ثلاثة أيام من الغم ومن هول ما رأى. فبعض الأنصار كانوا يقتلون الأسرى بالرغم من أوامر المهدي ولقد أخرج أهل الخرطوم من منازلهم ووضعوا في العراء في منطقه جنوب الخرطوم وقضوا ما يقارب الشهر في العراء وهذا في شهر يناير الذى يشتد فيه البرد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخبرتني عائشة أنه حين سأل المهدي عن العلماء وأمر بإحضارهم أخبروه أنهم قُتلوا. ولما قال:

- ألم أنهكم عن قتلهم؟

قالوا له:

- يا منتظر وجدناهم في خط النار وأنت أفتيت أن من وجدتموه في خط النار اقتلوه!

حينئذ أخذه الغضب وأسكته الهم فهو شريك في هذه الدماء وكان يعلم أنهم كذبوا عليه بشأن هؤلاء العلماء فهم لم يحملوا السلاح ولم يقفوا في خط النار. ياولدي المنتظر مات بعدها بقليل وهو نفسه لا يدري ما الذي قتله أهو الوجع الذي كان يشكو منه في شعبان وآلام الظهر والكوفار أم من السم أم من الغم. وإني أنا عائشة أظن أن المهدي قتله الغم قبل أن يقتله السم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

سبايا الخرطوم

أَحَبَـكَّ البَعْضُ مِنِـي وَقَدْ ذَهَبْتَ بِكُلي

يَا كُلَّ كُلِّي فَكُنْ لِي إِنْ لَمْ تَكُنْ لِي فَمَنْ لِي

الحلاج

قال جدي:

- سُمعت لأهل الخرطوم ضجة عظيمة حين عرفوا بأن جيش الأنصار اقتحم الأسوار ودخل المدينة. وكان هناك رعب وخوف. أغلق السكان أبواب بيوتهم فصدر الأمر للأنصار من الخليفة بحجز المنازل في يوم الفتح، فانطلقوا ينفذون الأوامر. كان بعضهم من الورع بمكان فقد كانوا جوعى لكنهم امتنعوا عن لمس أي طعام فالخليفة لم يأذن لهم. دخلوا منزل التاجر محمد علي بك فوجدوا الزبيب ودقيق القمح والسمن واللحم المقدد وجوالات الذرة ولم يجدوا بالمنزل بشراً. لم يمسوا شيئا من هذه المأكولات لأنهم كانوا صائمين ولو لم يكونوا صائمين فلا يمكن أن يأكلوا حتى يصدر الإذن من ولد النجومي عن المهدي بإباحة ما يؤكل مما يوجد من المأكولات. ولم يصدر الإذن الا ضحى الثلاثاء. خبزوا من الدقيق قراصة وإدامها الزيت تقشفاً مع أن السمن والعسل كان مع الدقيق. ثم فكروا أن صاحب هذا المنزل يجب أن يكون عنده من النقود والحلي الشئ الكثير ولا بد من أخذه لبيت المال. فأخذوا في البحث فلم يجدوا شيئاً حتى استعانوا بجيرانه الذين أخبروهم أنهم يخبئون حليهم في البئر فأنزلوا محمد مصطفى في البئر فوجد حلي المرأة وشيئاً كثيراً من الذهب فأخرجوه وربطوه في قطعة قماش وحملوه إلى بيت المال.

قالت لي عائشة:

- كانت هناك عدة مجموعات يا ولدي تصرفت كل منها وفق أوامر قياداتها. بعضهم دخل صائماً، لم يمد يده للغنائم ولم يأكل شيئاً بل لم يفطروا إلا على تمرات حملوها معهم وكانت أيديهم تعف عن الغلول. جمعوا الغنائم كما هي وسلموها كاملة مثلما أمرهم قادتهم. وبعضهم صنع ما يحلو له.

العم حسين والد ميمونة المجنونة كان هو أحد التجار الذين بقوا يعملون بالتجارة قبل عشرة أعوام من دخول المهدي. وهو الذي كان يمر على المهدي عند شاطيء البحر فيمنحه صاعاً من التمر كل صباح. في ذلك اليوم أغلق حسين باب داره جيداً ووضع العارضة الخشبية الضخمة دعامة للباب ليتأكد أن القادمين لن يتمكنوا من اقتحامه، ثم خاطب زوجته فرحة وابنته ميمونة بصرامة وحسم فقال لهما لا تفتحا الباب لأي إنسان هذا اليوم مهما حصل ومهما استمر الطرق على بابنا.

قال هذا وفرش فروته فصلى ركعتين على استعجال ثم أمسك بالمصحف وأخذ يقرأ القرآن بصوت خافت يشبه الحشرجة. لكنه بعد قراءة بضع آيات كان يقف فيذهب للتأكد من أنه قد أغلق الباب بإحكام وأن العارضة متينة يصعب كسرها. وكانت الأصوات تتعالى قرب بابه ثم تخفت فيعرف اقترابهم من داره أو ابتعادهم. وفي مرة كان قرب الباب فسمع الطرقات على أبواب الدور المجاورة ثم صرخات النساء. كانت زوجته الحاجة فرحة تميز أصوات جاراتها من صرخاتهن. هذا صوت صراخ الحاجة

نفيسة وذاك المبحوح هو صوت جارتها كلتوم! ثم صرخة ألم مكتوم وأصوات انتهار وغمغمات لكن الأصوات لم تنقطع أبداً في ذلك اليوم.

الحاجة فرحة اقشعر جسدها وهي تسمع صوت جارتها وصديقتها آمنة المحسية التي أطلقت صيحة عظيمة لم تسمع مثلها في حياتها كلها ثم تولول ثم صوت انتهار ويسود بعده صمت مريب.

ثم سمعوا طرقات عنيفة على باب دارهم فدخلهم الرعب ولم يفتحوا الباب. لكن العم حسين سمع بعد مدة صوتاً يناديه باسمه فظن أن هذا شخص من أصدقائه يطلب اللجوء إلى بيته، فذهب إلى الباب مسرعاً وأزاح العارضة الخشبية ومد يده ليفتح الباب، ليرى من الطارق فيدخله ويؤويه، وفي الحال وقعت يده على الأرض مقطوعة والدم يتناثر منها فقد قطعها ذلك الشخص الذي كان يمسك بالسيف ويتوارى خلف الباب متربصاً في انتظار العم حسين.

وقع العم حسين على الأرض لكنه زحف عائداً حتى وصل مصلاه فتبعه ذلك الأنصاري وقطع رقبته بالسيف فوقع رأسه فوق المصلاة. وكانت ميمونة وأمها واقفتين تنتظران، وقد تملكهما الرعب، لكن وقوفهما لم يطل فقد دخلت مجموعة من الأنصار فقبضوا عليهما وأخذوهما خارج الدار، ثم جمعوا النساء كلهن في زريبة من الشوك. الحاجة فرحة وجدت صويحباتها كلهن قد سبقنها إلى هناك. جارتها العروس التي لم يمض على زواجها أربعون يوماً. لم يشفع لها الغنى ولا المال. كانت تبكي بكاء مراً فقد قتلوا ابن عمها العريس! وقتلوا أباها وأشقاءها جميعهم. وجمعوها هي وصويحباتها أمينة وفاطمة وزينب ونزهة وآمنة والكثير من بنات أعيان الخرطوم ورجال الدولة، جمعوهن في الزريبة ثم قسموهن على القادة وحجزوا للمنتظر منهن نصيبه.

كانت ميمونة مع هؤلاء الأسرى في الزريبة، وكانت تعلم أن أمها مريضة وأنها لن تطيق هذا الأسر، فغافلت الحراس ليلاً وأخذت هي وأمها تزحفان على بطنيهما حتى دخلتا زريبة الغنم التي كانت قريبة من زريبة النساء ثم نفشت لها شعرها وجردتها من بعض ملابسها لتبدو بهيئة مزرية، وقضتتا تلك الليلة تحت أظلاف الغنم وبطونها متعرضتين لبول الغنم وروثها قصداً في ذلك المكان القذر، ثم وفي صباح اليوم التالي خرجتا من الزريبة ورائحتهما لا تطاق، وظن حارس زريبة الغنم أن هاتين المرأتين مصابتان بالجنون أو بمرض من الأمراض فلم يتعرض لهما. وكان الطريق خالياً من المارة في ذلك الصباح فالناس إما خائفون ومختبئون في بيوتهم أو أنهم من الأنصار الذين باتوا يتمتعون بالسبايا في الدور والقصور.

ذهبت ميمونة فأخفت أمها في المقبرة التي كانت تتردد عليها لتدعو لأم المهدي، ولما عادت إلى المقبرة في ذلك اليوم وجدت أمها مذبوحة ومتشحطة في دمها. فأصابها ما أصابها من الحزن على أمها وأبيها المقتولين وهامت في الطرقات نافشة جلبابها، وناكشة شعرها تمشي وتسب الأنصار كلما رأتهم. ومن الأعاجيب أنه لم يتعرض لها أحد فقد أيقنوا أنها مصابة بالعته والجنون، وكانوا مشغولين بالنساء في تلك الزريبة فهذه المجنونة لم تكن تعني لهم شيئًا.

لكن المنتظر لم يكن يعلم بأي من هذا في ذلك الصباح المهيب فقد كان غرب أُمْ دُرْمَان. وفي ليلة الجمعة قرر زيارة الخرطوم فخرج إليها وسار الناس خلفه حتى وصل بيت المال الذي كان بمنزل المفتي شاكر. فنزل عند الباب و دخل فقابلته امرأه تبكي وقالت له:

- يا سيدي المهدي ابنتي وأطفالها في الزريبة وهم متعبون فأذن لي في أخذها. فطلب أحمد سليمان أمين بيت المال وهو واقف مكانه فسأله:

- وما الزريبة؟

فقال أحمد سليمان:

- الزريبة هي المكان الذي جمعنا فيه نساء الخرطوم اللائي لم نجد لهن معارف.

فقال له:

- امش بنا إليها لأنظرها.

فتبعناه نحن الصبيان لننظر الأمر ولما قربنا سمعنا ضجة كبيرة وعند وصولنا رأينا زريبة من الشوك مليئة بالنساء وبجوارها زريبة أخرى ملئت بالرجال من الرقيق وزريبة ثالثة ملئت غنماً وأخرى للحمير فغضب المهدي وقال لأحمد سليمان:

- ما هذا وما كل هؤلاء النساء ولماذا جمعتموهن ومن الذي أمركم بهذا؟ يا أحمد كل هؤلاء الحريمات يوزعن قبل غروب الشمس، فمن عرفها أحد تسلم إليه ومن لم يعرفهن أحد فزوجوهن.

المهدي يا ولدي لم يكن يعرف أن هنالك زريبة وأن هؤلاء النساء كن لمدة اثني عشر يوماً بين أيدي من لم ينفذ وصية المهدي بعدم قتل غردون وبعدم قتل الشيخ حسين المجيدي فتعرضت النساء لكل أنواع المذلة والمهانة والاغتصاب لدرجة أنهم أخفوا عنه أمر الزريبة حتى فضحتهم تلك المرأة الشاكية للمهدي. وحين علم بذلك أرسل إلى الخليفة يقول: »إننا قد نبهنا من أول الأمر على أن نساء الفقراء من لها زوج تسلم إليه، ولا يعارضه فيها أحد. وقد بلغني أن بعض الأنصار يقولون إن أمر المهدي لم يلزم العمل به. وما أظن أن الذين يفعلون هذا إلا عائقون عن سبيل الله، صادون عباد الله عن طاعة الله، اتباعاً لأهوائهم. فافحص يا صديقي عن هذا أنت ومن معك من الخلفاء والأنصار الصادقين. إن من يفعل مثل هذا وغيره من ترك الأوامر تحبسوه نحو شهر، وكل يوم يضرب نحو أربعين سوطاً، كفارة له، وعبرة لغيره، لينزجروا عما يورث الهلاك لهم وللأمة. وكذلك من يمسك امرأة دون أن يؤمن عليها، ولم يأمروه بها، ولا يحفظها، ولم يوصلها محل الأمانة المعدودة لها، كأمين بيت المال ومن أمرهم، فلازم أن يحصل عليهم الزجر الكافي، والتهديد الشافي».

ولكن الخليفة لم يعمل بأي من ذلك الأمر الذي أحزن المهدي وجعله يتبرأ من كثيرين ويقول إنهم قد بدلوا وغيروا. وقد علل المهدي صرامة الحكم الذي أصدره، والذي خالف به معهود العلماء القاضي بأن التعزير لا يتجاوز الحد، قائلاً إن في هذا الفعل فساد شنيع فظيع: »وما مثل هذا إلا أفعال الجبابرة الذين لا خلاق لهم، فيهتكوا الحريم، ويفتضوا الأبكار، وما ذلك إلا عذاب النار. فلازم الإهتمام بهذا الأمر الذي أمرض قلبي وأنالني هما والسلام».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت عائشة:

- يا ولدي لقد تحققت رؤياه بتفاصيلها فهؤلاء الأنصار كانوا قد حاصروا الخرطوم في عام (١٨٨٤م) ودخلوها يوم (٢٦ يناير ١٨٨٥) وفي يوم (٢٧) اقتسموا النساء بينهم وباتوا في أحضانهن تلك الليلة. وفي صباح يوم (٢٨) استيقظوا على دوي المدافع ولعلعة الرصاص فتساءلوا هل هناك تمرد وسط الجنود؟ لكنهم علموا أنها الحملة الإنجليزية جاءت بالسفن لإنقاذ الجنرال غردون لكنها وصلت متأخرة وأن جيشاً قوامه عشرة آلاف جندي انجليزي في الطريق. الأنصار كانوا قد نسوا هذا كله وهم في أحضان النساء حتى نبهتهم أصوات المدافع، فقفزوا من بين أحضان السبايا ونادوا ود النجومي لمواجهة الجيش.

الباخرة الإنجليزية ضربت أكثر من أربعمائة قذيفة مدفع وكانت أوامرهم هي إنقاذ غردون لكنهم عرفوا أنه قتل فانسحبوا فالإنجليز لم يكن يهمهم إلا الإنجليز. وجيش المهدي عندما بدأ يطارد تلك السفن أخذ السبايا معه وهو في طريقه لمواجهة الجيش الإنجليزي المنسحب حتى وصلوا دنقلا. أبوقرجة أخذ سبيته معه فكان يستمتع بها في الطريق حتى فقدت عقلها من أهوال ما رأت. فأعادها إلى حراس الحظيرة وقال بنتكم مجنونة. خذوها فلا أريدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال جدي:

- أخبرني الشيخ محمد ود البصير أنه ذات يوم بعد فتوح الخرطوم طلبه المهدي نصف النهار وقال له إن أمر المهدية كان طويلاً ولكن الإخوان غيروا وبدلوا. قال فقلت له: بالله عليك كيف اتبعك هؤلاء وهم تعودوا ألا يتبعوا أحداً؟ فتبسم وقال لي: يا أخي إنهم إلى الآن لم يتبعوني على ما أطلبه من إقامة الدين. قلت له: لا تحزن يا مهدي الله فيدٌ تبني ويدٌ تهدم. أنت بنيت وهم هدموا. قلتَ لهم لا تقتلوا غردون فقتلوه، وقلتَ لهم لا تمسوا الشيوخ في الخرطوم فنحروا أعناقهم، وقلتَ لهم لا تقربوا النساء فجمعوهن في الزريبة وقسموهن بينهم كما يقسم الجزار قطع اللحم. لا تحزن يا مهدي الله. أنت قدمت عذرك بين يدي الله. وهؤلاء قوم خلطوا نور الحق بمحض الزيف، ونحروا مسبحة الصوفي بحد السيف، وقتلوا مهديتنا في المهد وقبل مجيء الصيف، وقالوا قد زهق الترك وجاء الحق ولكن كيف!

قال لي محمد ود البصير:

- الشيخ الضرير لم يؤمن بالمهدية. قال لتلاميذه: المهدي كافر.

قال التلاميذ:

- الناس اتبعوه وصلوا خلفه.

قال الشيخ:

- أجبروا على البقاء معه خوفاً من القتل فهم يصلون خلفه في الجامع لكنهم حين يرجعون إلى بيوتهم يعيدون الصلاة سراً.

بعض الطلاب لم يقبلوا كلام الشيخ لكنهم سكتوا خوفاً. فالناس أصبحوا على طرفي نقيض.

قال الشيخ:

- لو أنه اكتفى بقوله إنه المهدي المنتظر لكان أمره أيسر، ولو لم يكفر من لم يؤمن به لتبعه الناس لكنه حكم بكفرهم ثلاثاً. صرح المهدي بأن خليفته التعايشي ولي من أولياء الله وأنه بمنزلة أبي بكر الصديق وأن النبي الخضر وزيره وشهد له بالعصمة فقال: »واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب» وخوَّف من عارضه بخسران الدنيا والآخرة حين قال: »ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسي جزماً فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله. وإن رأيتم منه أمراً خالفاً في الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن واعتبروا يا أولي الأبصار بقصة موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام» فأعطاه المهدي سلطة مطلقة على أتباعه وجعل طاعته من طاعة الله ورسوله وإن خالف الشريعة. لا خير في الحياة بعد هذا فالموت أرحم بنا. فاللهم اقبضنا إليك غير مفتونين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



حديث النفس

قلت لأبي:

- لماذا سكت المهدي وأغضى عمن قتل العلماء في الخرطوم وهل أمر الخليفة عبد الله بقتلهم؟ وما مصلحته في ذلك ولماذا يخالف أوامر المهدي وهو خليفته؟

فقال:

- الأتراك منذ دخولهم هذه البلاد ضمن حملة محمد علي حاربوا وقتلوا علماء أهل هذه البلاد ولم يراعوا مذاهبهم الفقهية ولا جماعاتهم الصوفية. قتلوا الفقيه السيد ولد زين العابدين والشيخ حسن ولد رجب والفقيه محمد ولد عبد العليم خليفة ولد عبود. الأتراك أحرقوا أهل المتمة في خلوة الفقيه أحمد الريح وحبسوا الفقيه إبراهيم ود عيسى وقتلوا الشيخ صالح بان النقا. ومحمد احمد لم يفت عليه هذا فأضمرها لهم. ورغم أنه لم يأمر بقتل العلماء لكن يبدو أن قتلهم وافق هواه، سيما وأن من أمر بقتلهم ليس هو بل غيره.

والأتراك أدخلوا المذهبين الحنفي والشافعي بعد أن لم يكونا من مذاهب أهل هذه البلاد فرفضهما المهدي وكان يعلم أن كثيراً ممن خالفه من العلماء والمتصوفة التابعين للسلطان هم أهل قضاء وإفتاء ولم يكونوا أهل ذكر وعبادة، وكانوا موظفين عند الأتراك فرفضهم. والبقية ممن اعتزل هؤلاء وأولئك من أصحاب النفوذ هم على المذهب المالكي لكنهم لم يرفعوا أصواتهم في وجه الجور التركي فرفضه ورفضهم أيضاً بل ألغى المذهبية جملة وتفصيلاً حتى يوحد أهل هذه البلاد على مذهب واحد ليس هو أياً من هذه المذاهب. وحجته في رفع المذاهب هو مثل حجته في رفع الشرائع فالشيخ محيي الدين يقول: »والشرائع كلها أنوار وشرع محمد صَلَّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم بين هذه الأنوار كنور الشمس بين أنوار الكواكب، فإذا ظهرت الشمس خفيت أنوار الكواكب واندرجت أنوارها في نور الشمس، فكان خفاؤها نظير ما نسخ من الشرائع بشرعه صَلَّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم مع وجود أعيانها كما يتحقق وجود أنوار الكواكب ولهذا ألزمنا في شرعنا العام أن نؤمن بجميع الرسل وجميع شرائعهم أنها حق فلم ترجع بالنسخ باطلاً ذلك ظن الذين جهلوا فرجعت الطرق كلها ناظرة إلى طريق النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم فلو كانت الرسل في زمانه لتبعوه كما تبعت شرائعهم شرعه فإنه أوتي جوامع الكلم وكذلك أتباع المذاهب في زمان المنتظر فإنه ينسخ حجبهم لتبدو الحقيقة ساطعة لكل ذي عينين». لم يكن محمد احمد يصدر عن عناد عنجهي بل عن حجة شيخه ابن عربي.

ظن الأتراك أنهم وظفوا هذا الخلاف بذكاء حين حرضوا الفقهاء على المهدي وأطلقوا أيديهم وألسنتهم فأفتوا أنهم اطلعوا على أحاديث المهدي وأوصافه وميقات خروجه ورأوا أن ذلك كله لا ينطبق على محمد احمد فأصدروا الفتاوى في حقه. شيوخ الصوفية الذين كاتبهم المهدي للقيام بأمر الدين عارضوه. وكذلك الختمية في الشرق. والمهدي كان يتوقع معارضة العلماء وتكذيبهم له فقد علم بحكم تربيته الصوفية أن العلماء في هذه البلاد ومنذ عهد الفونج كانوا أحد فئتين فئة لا تعارض السلطان القائم بل وتناصره في كل الأحوال وهؤلاء طلاب دنيا وفئة أخرى زاهدة في السلطان ولكنها

لا تخرج عليه وهذه الفئة الأخيرة التي انصرفت عن السلطان هم صفوة من العلماء ترفعوا عن بقية أقرانهم من الواقفين بأبواب السلاطين.

الحكم التركي حرض شيوخ الصوفية والعلماء ليكذبوا المهدي فعبد القادر باشا يسمونه صاحب الجلالة والشهامة والرأي السديد والتدبير الكامل والبسالة والفخامة ناظر الديوان وحكمدار عموم الأقاليم السودانية سعادتلو عبد القادر باشا حرض محمد شريف نور الدائم شيخ الطريقة السمانية لينظم قصيدة يكذب بها المهدي لكنه اعترف رغم ذلك بزهده وعميق إيمانه! كثيرون وقفوا مع السلطان ضد المهدي في المدن التي لم تسقط لكنهم انضموا للمهدي بعد ذلك! مثل محمد الخير في بربر والعبيد ودبدر في أم ضبان ومضوي بن عبد الرحمن في العيلفون.

بعث رؤوف باشا علماءه إلى أبا لمناقشة المهدي ورده عن مسلكه هذا بالمنطق والحجة والبرهان كما كون مجلساً من علماء الخرطوم وعرض عليهم مكاتبات محمد احمد ومنشوراته فالتمس له بعضهم عذراً في أنه قد حصل له جذب سماوي من انعكافه على الزهد والعبادة ولكنهم حكموا جميعاً بوجوب القبض عليه وتلافي الأمر قبل اتساع الخرق. فأرسل رؤوف باشا بعثة محمد بك أبوالسعود للقبض على المهدي في أبا.

لكن الشيخ مضوي ولد عبد الرحمن سار إلى المهدي وسأله عن حقيقة أمره فقال له المهدي:

- »ما أنا فيه من الدعوة والمهدية هي بتكليف من رب العباد بأوامر إلهية وتوجيهات نبوية عن طريق الرؤى في المنام والهواتف في حال اليقظة. فالأمر الذي نحن فيه لا بد من دخول جميع المومنين فيه إلا من هو خالٍ من الإيمان، وذلك مما ورد في حقائق غيبية وأوامر إلهية وأوامر نبوية أوجبت لنا مهمات صرنا مشغولين بها، وثم تواترت الأنوار والبشائر والأسرار والأوامر النبوية والهواتف الإلهية بإشارات وبشارات عظيمة...«.

والشيخ مضوي يقول مستنكراً:

- والأئمة أبوحنيفة ومالك والشافعي وأحمد ومن بعدهم!

فيرد محمد احمد:

- هؤلاء جميعهم اجتهدوا في أزمنتهم وليس هذا زمانهم فهذا زماني. أما هم جزاهم الله خيراً فقد أوصلوا المسلمين إلى زمني! وأما هؤلاء الذين جاءوا يجادلونني بالمذاهب ألا يعلمون أنها رُفِعَتْ؟

- لكن شيوخ المذاهب يقولون بخلاف ما تقول فشروحهم وتقريراتهم اتبعها المسلمون مئات السنين وتلقوها بالقبول.

- كانت بمثابة الحُجُب التي أخفت الحقيقة عن أعين ذوي البصائر إلا ما كتبه الغزالي وابن عربي والشعراني فالغزالي بدأ شافعياً وانتهى متصوفاً وكذلك الشعراني وأما الشيخ الأكبر ابن عربي فقد بدأ مالكيا وانتهى ظاهرياً ثم باطنياً. فجميعهم بدأ بالمذهب وانتهى إلى أن أصبح مبصراً. وشتان بين من هو فيما يفتي به ويقوله على بصيرة منه في دعائه إلى الله وهو على بينة من ربه وبين من يفتي في دين الله بغلبة ظنه. قال أبويزيد البسطامي رضي الله عنه في هذا المقام: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت

وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي وأنتم تقولون: حدثني فلان، وأين هو؟ قالوا: مات، عن فلان، وأين هو؟ قالوا: مات. فاسم الفقيه أولى به نحن منهم. وأما أنا فقد دفعت لي الولاية والإمامة والمهدوية دفعاً ولم أطلبها.

- وكيف حدث ذلك؟

- بالأوامر الإلهية في الحضرة النبوية حال اجتماعي بسيد الوجود يقظة لا مناماً فأخذت منه كفاحاً وفي المجلس نبي الله الخضر والشيوخ الأموات السابقون لعصري والملائكة كعزرائيل.

- وبماذا أخبرك سيد الوجود؟

- لم يخبرني وإنما أخبر من معي في المجلس وأخذ عليهم العهد فكان كلما جاء رجل ممن معي يأتي النبي ويجلس معي ويقول للرجل شيخك هو المهدي، فيقول إني مؤمن بذلك، فيقول: من لم يصدق بمهديته كفر بالله ورسوله قالها النبي ثلاث مرات. وفي مرة أعلمني بأني المهدي المنتظر وخلفني بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء والأقطاب والخضر وجمع من الأولياء الميتين وبعض من الفقراء، وقلدني سيفه وأيدني بالملائكة العشرة الكرام وأن يصحبني عزرائيل دائماً، ففي ساحة الحرب أمام جيشي وفي غيره يكون ورائيا، وأن يصحبني الخضر دائماً ويكون إمامنا سيد الوجود وخلفاؤه الأربعة والأقطاب الأربعة وستين ألف ولي من الأموات.

ويصمت الشيخ مضوي فهذا الرجل لا فائدة من الحوار معه. إنه في الجذب المستمر.

قال أبي قلت لجدك:

- ما زلت متحيراً هل هو المهدي أم ليس هو؟

قال لي:

- يا ولدي أقول فيه ما قاله الشيخ مضوي ولد عبد الرحمن.

- وماذا قال؟

- أنت تعلم أنه فقيه مفتٍ وعلامة أزهري ومن أعلام الفقه والفتوي في البلاد وقد أمضى ثمانية أعوام في الأزهر وأجيز في الفقه ليصبح أستاذاً معلماً في الأزهر. لكنه عاد لبلاده وسافر إلى الجنوب ليقابل الزبير باشا ويعود تاجراً وبعد ظهور محمد احمد المهدي وكثرة الجدل الفقهي حول مهديته سافر إليه ليتقصى حقيقه الأمر بنفسه.فلحق بمحمد احمد في جبال النوبة في جبل قدير وحاوره كثيراً.

- وما الذي خلص إليه بعد ذلك الحوار؟

- أن محمد احمد رجل غيور على الإسلام لكنه ليس هو المهدي. ولما سئل عن ذلك قال إن المهدي يخالف الإسلام في أساسيات مثل أنه يكفر من لم يؤمن بالمهدية التي هي ليست من أركان الإسلام. فالمهدية حركة سياسية أكثر من كونها دينية. ومحمد احمد عطل الحدود الشرعية فمنع الحج ولم تكن فيه علامة واحدة من علامات المهدي المنتظر.

- فلماذا تبعه إذن؟

- قال: علمت أنه يقتل مخالفيه فبعدما حاورته وأقمت عليه الحجة خفت أن يقتلني ورأيت أن بقائي معه أفيد للمسلمين من إعلان مخالفته وقتلي خاصة وأنه رجل تمكن من جمع صف أهل هذه البلاد تحت راية الدين فتبعناه ليطرد حكام الجور ومن شايعهم من النصارى. ولذلك عينني المهدي عاملاً على الجزيرة وسنار لنشر المهديه وعين معي ود الصليحابي كمعاون لي وود البرجوب فسرنا إلى الجبلين. ولما وصلنا هناك عرف الرجلان رأيي في المهدية وفي المهدي فأرادا أن يقبضا عليَّ ويرسلاني للمهدي. لكني أدركت مرامهما فاحتلت عليهما بأن استأذنتهما للمسير لقرية كركوج من أعمال سنار. ولما وصلت كركوج هربت منهما إلى العيلفون وأعلنت رأيي في المهدي ودعوته. ولما وصلت أخباري للمهدي توعدني بالهلاك إن قبض عليَّ وكنت أعلم هذا الأمر منذ أن كنت عند المهدي في قدير! وفي العيلفون قابلت الشيخ العبيد ولد بدر وأخبرته برأيي حول مهدوية محمد احمد وكان الشيخ العبيد رجلاً حكيماً فقال لي: أكان المهدي جيد لينا وكان ما مهدي شن لينا؟ يعني لو كان هو المهدي حقاً فهذا أمر جميل لكن لو تبين أنه كاذب فكذبه عليه وليس علينا.

- معنى هذا أن الشيخ مضوي منحاز لجانب الأتراك؟

- ليس تماماً علماً بأن الحكومة التركية عندما علمت برأي الشيخ مضوي في المهدي عرضت عليه تولي وظائف متعددة بحكم أنه أزهري لكنه لم يقبلها ولم يعمل مع الحكومة.

- لماذا يا أبي؟

- كان رأيه أنها حكومة ظالمة جائرة وهو لن يعينهم على الجور وحين سأله الحكمدار حلمي باشا عن رأيه في المهدي ذهب إلى مجمع العلماء في الخرطوم وأخبرهم برأيه في المهدي وقال لهم إنه قابل المهدي لمعرفة حقيقته. وقد تبينت له حقيقة مهدويته وأنه ليس هو المهدي لكنه ثائر على الظلم.

- لكن يا أبي أنا علمت أن الشيخ مضوي شارك في حصار الخرطوم.

- نعم هذا صحيح لأن الشيخ مضوي أدرك بعد أن فتح المهدي مدينة الأبيض أن هذه الثورة منتصرة فانضم للشيخ العبيد وشارك في حصار الخرطوم فعفا عنه المهدي.

- وهل تخلى عن رأيه في مهدية المهدي؟

- كلا! فمازال ينظر للمهدية أنها حركة سياسية وطنية وأنها ليست مهدية وذلك حتى تولى الخليفة عبد الله التعايشي واستمر الشيخ مضوي مجاهراً برأيه في المهدية. ولما قامت ثورة الأشراف شارك فيها فقبض عليه الخليفة عبد الله لكنه احتال على الخليفة فهرب منه بمعاونة صديقه النور الجريفاوي أمين بيت المال الذي ساعده على الهرب هو وتلميذه بابكر ود مالك وهو من أهالي العيلفون أيضاً. ولكنه حينما وصل العيلفون نصحه عمه الشيخ الحبر أن يتوجه إلى القضارف ففعل وقابل الشيخ محمد احمد ود أبوسن في القضارف وأخبره عن حقيقة المهدية، فنصحه أن يلجأ إلى قبيلة الحُمران وبالفعل ذهب إلى هناك وتزوج منهم. لكن حين بلغه أن الخليفة عبد الله أرسل قوة للقبض عليه دخل الحبشه هارباً من جنود الخليفة. ثم بعد مقتل عامل الخليفة الأمير محمد ود الأرباب وتدمير القلابات بواسطه جيش الحبش في يناير (١٨٨٧م) وإرسال قوات الأمير النور ود الدكيم لحرب الحبش هربٍ ودخلٍ الحبشة

ومن هناك غادر للحجاز فحج وزار بيت المقدس ومنها سافر لمصر وبقي فيها زمنا طويلا حتى نال الإجازة العالمية من الأزهر الشريف وأجري له راتب كعالم كبير في الأزهر. وبعد تقدم كتشنر إلى دنقلا وكورتي عُين قاضياً ليعمل متعاوناً مع قلم المخابرات الإنجليزي.

قال له رودلف كالفون سلاطين: لاشك وجود حضرتكم بكورتي سيعود على قلم المخابرات بفائدة جليلة نظراً لما لكم من الاختبار في أحوال هذه البلاد في الماضي والحاضر ومعرفتكم حقيقة الواردين على كورتي لكن تبين أنه عمل مع المخابرات ليعرف تآمر بريطانيا على بلاده وليس ليعينهم عليها فبعد كرري (١٨٩٨م) بثلاث سنوات اعتقل إثر وشاية من مجهول أخبر بحقيقة انضمامه لقلم المخابرات فنفي بواسطه قلم المخابرات إلى الناصر بجنوب السودان لمدة ثلاثة أشهر ثم أطلق سراحه فاستقال من القضاء ورجع إلى قريته العيلفون لتدريس الفقه واشتهرت حلقاته العلمية وظل مجلسه عامراً بالشيوخ والطلاب حتى توفي في العيلفون سنه (١٩٠٤م).

- هل كان الشيخ مضوي متصوفاً؟

- لا فهو لم ينتم لأي طريقة صوفية معروفة. قال عنه نعوم شقير: لو كتب للشيخ مضوي الاستقرار بالعيلفون لجعل منها أمة تفتي في الفقه.

أكملنا مشوارنا في الخرطوم وقصدنا محطة الترام عائدين إلى أُمْ دُرْمَان وكان يوماً لا ينسى.

قلت لأبي:

- ما الذي جعل التعايشي يغض الطرف عن مجالس إلياس باشا أم برير فمؤكد أنه كان يعرف خبرها ولا تخفى عليه.

فابتسم وقال:

- لابد أنه كان يعلم لكنه لم يكن ليفقأ عينه بأصبعه فهذا المجلس هو مجلس جواسيسه ومنه يستقي الأخبار، فإلياس كان حاكماً لكردفان أيام الأتراك وقبل مجيء المهدي لكنه أقيل من حكم كردفان وجيء بمحمد سعيد جراب الفول بدلاً عنه لأن القبائل لم تقبل بالجلابي. فانقلب إلياس باشا أم برير على الحكومة وأصبح من خيرة جواسيس المهدي وعيونه، واتصل به فيما بعد وشجعه على الهجوم على الابيض. وكان المهدي في زياراته قبل إعلان مهديته ينزل عنده. ثم لما جاء مع المهدي وفتح بيته في أُمْ دُرْمَان بقي الناس يختلفون إليه ويتبادلون الأخبار في بيته. هل ترغب أن أحدثك بقصة الخليفة عبد الله بعدما عرفت قصة المهدي؟ فهي حكاية مشوقة للحد البعيد.

قلت:

- لا يا أبي. لا أريد!

وفي هذه المرة لم يكن أبي ينتظر مني مثل هذه الإجابة، فسكت وبقينا صامتين. لكنه حين بلغنا وجهتنا قال لي مداعباً:

- ياولدي هو بعض تاريخنا. وعلينا ألا نتحاشاه.

قلت: يا أبيِ الجهل ببعض تاريخنا خير من الخوض فيه.

قال: لماذا؟

قلت: هذه الفترة اسمها المهدية وليس التعايشية، وما ذكرته عنها اليوم يكفيني وزيادة.

قال لي:

- أنت حكيم.

قلت:

- ألا تلاحظ يا أبتي أنك لم تترك يدي طوال الرحلة؟

قال:

- كان أمراً عفوياً ولم أنتبه! هل تريدني أن أترك يدك الآن؟

قلت:

- كلا. لا أريدك أن تترك يدي أبداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞p?^

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞




متميزون
للكتب النصية
E-Book

<u>Group Link – لينك الانضمام الى الجروب</u>

<u>Link – لينك القنـــــاة</u>

رس..